المهدي المنتظر والعقل

تمهيد

بعد أن صدر كتاب « الشيعة والتشيع » وردت إليّ حوله رسائل من قرائه ، وما تأثرت بشيء ، كتأثيري برسالتين منها :

الأولى : من شاب مدرس في احدى مدارس العراق ، جاء فيها : ما كنت أحسب ان أحداً بمقدوره أن يقنعني بالمهدي المنتظر ، كما هو في عقيدة طائفتي وآبائي وأجدادي ، ولكني بحمد الله قد اقتنعت وآمنت بعد ان قرأت كتابك « الشيعة والتشيع » .

والرسالة الثانية : من العراق أيضاً ، ولم يفصح صاحبها عن مهنته ، قال فيما قال : كنت من قبل أضع فكرة المهدي في عداد المستحيلات ، حتى قرأت الفصل الخاص به في كتاب « الشيعة والتشيع » فعدّلت رأيي وقلت : انها ليست محالاً ، كما كنت أحسب وأعتقد .

فحمدت الله وشكرته جل وعز ، وقلت في نفسي : وأية أمنية أبتغيها من التأليف وراء هذه ؟ وأي عمل أتزود به في دار المقامة أنفع وأرفع ؟ وأيضاً قلت في نفسي : ما دام هذا أجري من الكتابة فلن ألقي القلم ، وفيّ نفس يتردد ، وعرق ينبض .

وكلنا يعلم ان موضوع المهدي المنتظر من الموضوعات الشائكة للغاية ، بالقياس الى تفكير النشء وتربيتهم ، بخاصة من تغلب الزهو عليه ،

وغرق في الغرور الى ما فوق اذنيـــه .. ومن هنا شعرت بالغبطـــة .. واستغفر الله .. وان دلت الرسالتان على شيء فانهما تدلان – أولاً – على جبن من يراوده الخوف من معالجة هذا الموضوع وما اليه ، الخوف من الاخفاق والاستخفاف ، وانه غير خليق بشيء – أقصد من له أهلية التفهم والتفهيم – ولا أصدق ان « عالماً » يحصل على شيء يذكر في آخرته ودنياه ، إذا لم يكن شجاعاً مقداماً .. فلقد سبق في عـــلم الله وقضائه ان لا يكون للجبناء من فضله الدائم نصيب محمود .

ومهما يكن ، فلم يدر في خلدي حين قرأت الرسالتين أن أضيف شيئاً على فصل المهدي المنتظر في كتاب « الشيعة والتشيع » أو أطبـــع هذا الفصل ثانية في كراسة على حدة ، ليطلع عليه من لم يصل الكتاب اليه وانما انصرفت الى كتاب « علي والفلسفة » ، ثم الى كتاب « الوقف والحجر على المذاهب الخمسة » ، ثم إلى كتاب « الحج على هذه المذاهب » ثم إلى كتاب « تجارب وتأملات » ، ثم إلى كتاب « أصول الإثبات في الفقه الجعفري » ، ثم إلى هذه الصفحات[1] .

وفي اللحظة التي خط القلم فيها كلمة الختام من كتاب اصول الاثبات ، وقبل أن أقوم من مكاني رأيتني – بحافز لا شعوري – اشرع بالكتابة عن الإمامة بوجه عام ، كما كان يبدو لي باديء ذي بـــدء ، لأخرج كتاباً يحمل اسم « الإمامة والعقل » .. وكنت اذا سألني سائل فيم أكتب أقول له : في الإمامة والعقل ، وقبل ان انتهي من الفصل الثالث تبين معي اني أكتب عن صاحب الأمر والزمان (ع) بوجه خاص ، لا عن الإمامة بوجه عام ، ولكن بأسلوب جديـــد ، وتفكير جديد كما خيل

---

١ الكتاب الأول نشرته دار الكاتب العربي ، ووزعته ، والثاني طبعته دار النشر للجامعيين ، والثالث يعرض في المكتبات ، والرابع انتهيت منه ، ولا أدري ماذا يكون مصيره ، والخامس طبعته دار العلم للملايين ، ... وابتدأت بهذه الكتب في ٢٠ شوال من سنة ١٣٨٨٢ هـ . وتمت بحمد الله في ١٥ شوال من سنة ٨٣ .

إليّ ، فعدلت عن اسم الإمامة والعقل إلى اسم المهدي والعقل ، وليس هذا من باب فسخ العزائم حيث لم يخطر لي العدول والفسخ ببال، ولكنه من باب : أردت أمراً وأراد الله خلافه ، فمضيت على ارادته، والدمعة ترقرق في عيني غبطة وسروراً .

وتقول : هذا محال، أو بعيد ، إذ كيف تقصد الكتابة في موضوع ، ثم يتبين أنه غير ما قصدت ؟.. أليس هذا من باب « أردت مـا لا تريد » ؟.. لأن الكتابة في شيء لا تنفك عن ارادة هذا الشيء بالذات.

وأقول : أجل ، وقد كنت أرى – من قبل – أن مثل هذا محال، كما تراه أنت الآن .. ولكن صدق ، أو لا تصدق ، هـذا ما وقع وحصل .. أما التفسير الذي أركن اليه فلم أجده إلا في مشيئة الله وارادته، جلت حكمته وقدرته[1] أما أنت ففسر بما شئت .

وشيء آخر أود ذكره وبيانه ، وهـو اني في سنة ١٩٥٩ وضعت تصميماً لسلسلة « الاسلام والعقل » وجاء كتاب الأمامة والعقل – بحسب العزم والتصميم – الكتاب الرابع ، وبالفعل صدرت كتب: الله والعقل، والنبوة والعقل ، والآخرة والعقل ، وحين وصلت الى الرابع اذا به علي والقرآن بدل الأمامة والعقل ، ثم فضائل الإمام علي ، ثم علي والفلسفة.

وبعد أربع سنوات أو أكثر من العزم والتصميم رجعت الى الإمامـة بوجه عام – وحكيت القصة – .. ومن يدري لعلي اعزم في المستقبل

---

١ ذكرت في كتاب تجارب وتأملات ان الله سبحانه أقام البراهين العامة على وجوده من خلق السموات والأرض ، وما اليه ، ثم أعطى كل نفس من الأدلة ما تختص به وحدهـا ، وإذا رجع كل إنسان إلى تاريخ حياته ، وتدبرها بامعان لمس هـذه الحقيقة ، حيث يجد حوادث قد حصلت له ، ولا يجد لهـا أي تفسير إلا في مشيئة الله وارادته ، وأنا أضيف هـذا الدليل إلى ما ذكرته في التجارب والتأملات ، وسوف أضيف إلى هذا الدليل ألف دليل ودليل ، انأمد الله في الحياة .

القريب أو البعيد على موضوع غير الأمامة والعقل ، وإذا به نفس الإمامة والعقل ، تماماً كما حصل مع هذه الصفحات ..

بقي شيء ثالث ، وهو – أني – منذ كتبت في الله ، والنبوة ، والآخرة ، الى الآن قرأت عشرات الكتب في موضوعات مختلفة ، واتجاهات شتى ، وقد تبين معي انها كانت المادة ورأسمال لهذه الصفحات ، وسأضيف ، بحول الله وتوفيقه ، الى تلك القراءات قراءات ومطالعـــات ، ان بقيت للكتاب والقلم .. ومن يدري فقد تكون قراءاتي غداً مادة خصبة لكتاب « الامامة والعقل » .. أو إمامة علي والعقل والى اللقاء .

والحمد لله الذي قدر فهدى ، ويسر لليسرى ، وصلى الله على محمد وآله الأبرار الأطهار .

ملاحظة :

الآن تذكرت ملاحظة ، تتصل بهذه الصفحات وغيرها من كتبي الصغار ، وأخشى النسيان والذهول عنها ، ان لم أبادر لتسجيلها ، وخلاصتها ان سلسلة « الاسلام والعقل » الله والنبوة والآخرة جاءت في كتيبـات صغيرة ، وكان الأفضل ان تكون أضخم وأكبر .

وخلاصة الجواب :

١ – ان العبرة في الكيف لا في الكم ، بالفكرة والدقة والأمانة لا بعدد الصفحات ، فلقد كنت ، وما زلت أكره الحشو والفضول ، واللف والدوران ، وأحب الاختصار ، بدون ان يخل بالمعنى ، ويغير من طبيعته شيئاً ، ولو أردت لعبرت عن الصفحة الواحدة بصفحتين ، أو أكثر .

٢ ـ ان الهدف الذي أرمي اليه من كتابتي هو أن يقرأ هذا النشء الضائع عن الدين ويطلع على شيء مما لدينا عسى أن يهتدي واحد من مئة ، فان الفاصل الذي يفصلهم عنا هو جهلهم بنا ، وقد كان وما زال جهل الناس بعضهم لبعض سبباً للنزاع والصراع ، فان علموا أمكن القرب والتفافهم ، وأسهل الطرق لترغيبهم في القراءة المختصر المفيد الذي يستطيعون متابعته ، وهم في السيارة ، وحين يأوون الى مخادعهم ، تماماً كما يقرأون الصحف .. وما زلنا نسمعهم يرددون نحن في عصر السرعة ، والاختزال ، واختصار الأوقات ... فاختصرت ، ليقرأوا ، وهم سائرون ، تماماً كما يأكلون « السندويش » .

ولو قارن مقارن بين من قرأ من شباب هذا العصر كتاب « علي والقرآن » مثلاً ، وبين من قرأ المطولات القديمة والحديثة في هذا الموضوع لوجد ان نسبة هؤلاء الى أولئك نسبة الواحد الى الألف ، على أكثر تعديل .. ان لم نقل لا شيء ..

وبكلمة اني اهتم ـ أولاً ـ بأبنائنا ، وأحاول الاقتراب منهم ، وحملهم بشتى الطرق على الدين والايمان ، وادع الحجاج الصائمين المصلين الى من أرادهم من الاخوان . والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين[1] .

---

١ لم يبق لهذه الملاحظة مجال بعد ان حوت هذه المجموعة على الكتب الاربعة .

النقد على صعيد الرغبات

عين الرضا :

إذا أحسن اليك انسان ، واستجاب لرغباتك فقد ملك عقلك وقلبك، لأن الانسان عبد الإحسان ، والقلوب مطبوعة على حب من أحسن اليها، فاذا نظرت إلى أقواله وأفعاله نظرت اليها بعين كليلة عن الحق، واعتقدت بأن ما يقوله هو العدل والصدق ، وان ما يفعله هو الصواب والحق ، حتى ولو كان كاذباً في أقواله ، مخطئاً في أفعاله ، دون أن تشعر بهذا الميل والانحياز .. بل انك تحسب مخلصاً ان ما تمليه عليك العاطفة هو من املاء العقل ، ومنطق الواقع .

عين السخط :

والشيء نفسه يقال في شهادتك على من أساء اليك، لأن عين السخط تماماً كعين الرضا كلتاهما تعميان عن الحق ، وصاحبها ينطق عن الهوى، ويحسب انه وحي يوحيه الحق والواقع ، وليس عامل التربية والبيئة بأفضل من عامل الحب والكراهية في تصوير الواقع تبعاً لها .

الآراء والمعتقدات :

وإذا كانت آراء الناس ومعتقداتهم – غير البديهية – عرضة لأخطاء البيئة والأنانية فعلى العاقل المنصف ان يتهم نفسه فيما يرى ويعتقد ، وان يتنبه دائماً إلى أن ما يؤمن به يقبل النقد والنظر ، وانه لو كان منزهاً عن الخطأ لكان نبياً مرسلاً ، وكانت جميع أقواله وآرائه مقياساً للحق ، ومعياراً للعدل .

أما الذي يحق له أن ينظر وينقد فهو المنصف العارف الـذي يملك الاستعداد والمؤهلات .. فان الجاهل بالطب لا يدعى إلى فحص المريض ، ومن لا يعرف الهندسة لا يطلب اليه أن يضع فيها الترتيبات والتصاميم ، ومن لا يركن إلى ضميره لا يعتمد عليه في شيء ، ومن كفر بالله لا يسأل عن رأيه فيمن آمن وأيقن .

أجل ، لو ان من كفر وجحد كان قد قرأ الفلسفة الإلهية ، واطلع على براهين الإلهيين وأدلتهم لكان للسؤال عن رأيه وجه ، ان كان من أهل الرأي والانصاف ولكن كيف يقرأ وهو يرى مسبقاً ان كـل ما يتصل بالدين أسطورة ووهم ؟! وهل تقرأ أنت كتاباً في الحساب لمؤلف يرى ان اثنين واثنين تساوي عشرة ؟! وهذا هو بالذات شأن كثير ممن جحد وألحد .

وتقول : هذا هو حال المؤمنين أيضاً بالقياس إلى كتب الإلحاد حيث لا يقرأون كتب الملحدين وبراهينهم .

الجواب :

مـا من باحث في الإلهيـات قديماً وحديثاً الا واستعرض أقوال الملحدين وأدلتهم وتناولها بالنقد والتحليل في ضوء العقل ، واهتم بها كل الاهتمام ، أما الملحدون فترجع جميع أقوالهم وأدلتهم إلى شيء واحد ، وهو ان الإيمان بالله ايمان بالغيب ، وانهم لا يؤمنون إلا بالحس .

وأجابهم من آمن بالحق والعدل : ان الإيمان بالحس هو في الوقت نفسه ايمان بالعقل ، لأن شهادة الحس ليست بشيء لولا العقل ، وإذا جاز الاعتماد على العقل في الحس المباشر جاز الاعتماد عليه في الحس غير المباشر ، والتفكيك تحكّم ، وترجيح بلا مرجح.

ومهما يكن ، فان الغرض من هذا الفصل ان نبين ونؤكد ان الانسان لا يسوغ له أن ينتقد إذا كان أسيراً لمذهب أو نظرية أو تربية أو أي شيء .. ومن هنا حين أراد ديكارت أن يركّز معلوماته على المنطق السليم شك بادىء ذي بدء في كل شيء الا في الشك ، ثم أخذ بالنظر والاستدلال .

وتقول أيضاً : ان معنى هذا أن نسد باب النقد من الأساس ، اذ ما من عالم أو فيلسوف الا وله نظرية خاصة ، لا ينفصل عنها ، وينظر إلى الشيء من خلالها ، ويحكم عليه بوحي منها ، وعلى هذا فمن يلتزم ديناً معيناً ، أو مذهباً خاصاً لا يسوغ له أن ينتقد من لا يدين بدينه ويتمذهب بمذهبه .

الجواب :

أولاً : ان عدم انفصال المرء عن رغباته لا يعني انه بعيد عن الحق والواقع في كل ما يقول ويفعل ، فان بعض الرغبات تأتي انعكاساً عن الواقع ، وتعبيراً عن الخير ، ولو صح القول بأن الرغبات والتعصبات بكاملها لا تمت الى الواقع بصلة لما وجد في الانسانية مصلح ، ولا مفكر ، ولا داعٍ الى الحق والخير .. ولوجب ان يسد باب القضاء والترافع لأن كل من يدعي شيئاً يرغب فيه ، ، ويتعصب له ، فكما ان القاضي العادل العارف لا يرفض الدعوى اعتباطاً ، ولا يحكم بها تشهياً ، وانما يستمع للمدعي ، ويطلب منه البينة والدليل ، ويحكم بما تستدعيه الأصول المقررة .. كذلك علينا نحن ان لا نصدق ، أو نكذب ما نسمع ونقرأ

إلا بعد النظر والبحث . وهذا هو النقد بمعناه الصحيح .

ثانياً : ليس العبرة في صحة النقـــد أن يكون عقـل الناقد صحيفة بيضاء ، لم يُخط فيها حرف واحد ، وانما العبرة ان يعتمد في نقـــده على ما هو مقبول في نظر العقل ، أو مسلم به عنـد الخصم ، فلك أن تنتقد من يقول بأن الأرض مسطحة ، وأنت مؤمن بكرويتها ، عـــلى شريطة أن تأتي بالدليل المقنع على بطلان التسطيح وان تقول للمسيحي : انك تخالف كتابك المقدس لأنك لا تمد خدك الأيمن لمن ضربك عـــلى خدك الأيسر ، تقول له هـــذا ، وان لم تكن مسيحياً .. وان تقول للمسلمين : انكم تخالفون أمر القرآن الكريم : واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وان لم تكن مسلماً ، ويكون قولك هذا حجة دامغة .. وبكلمة،ليس من شرط الناقد ان لا يؤمن ولا يعتقد بشيء ، وانمـــا الشرط ان لا يتخذ من ايمانه واعتقاده معياراً لبطلان العقائد الأخرى ، وان لا تحول عقيدته ونظريته دون العدل ومنطق العقل ، وان يعتمـــد على الدليل الذي تسالم عليه العقلاء ، أو آمن به الخصم على الأقل،وبهذا المنطق يقف الناقد موقف المحايد ، وبدونه يعجز عن القيام بمهمة النقد الصحيح ، وان بلغ من العلم ما بلغ .

كتاب وجواب :

كتب إليّ عراقي يقول : انك تهدف مما تكتب الى هداية الشباب الى الدين ، وأنا بحمد الله مؤمن متدين ، ولست بحاجة الى من يحببني بالدين،ولكني لا أرى أي شيء من صميم الدين إلا اذا اعترف به عقلي، ورآه حسناً ، أما ما ينكره فأعتقد انه ليس من الدين في شيء ، وانما هو من وضع رجال الدين الذين انحرفوا به عن أهدافه السامية ، امـــا

جهلاً بحقيقته وجوهره واما عن قصد ، ليعيشوا عن طريق الخرافات والأساطير التي يستسيغها البسطاء وأرباب الجهالة .

وهذا القول يردده كثيرون من شباب اليوم خوفاً من وصمة الالحاد، وما دروا انه اعتراف صريح على أنفسهم بالالحاد والكفر ، واقرار عليها بالجهل والحماقة ، من حيث لا يريدون .. ومهما يكن ، فقد أجبت هذا الشاب بما يلي :

أولاً : أجل ، لا شيء من الدين يتنافى مع العقل ، ولكن العقل الذي يناصر الدين شيء ، والذي تراه أنت انه من العقل شيء آخر .. ان للعقل حدوداً تستقل عن رغبات الفرد وأهوائه الشخصية ، واحكاماً يستسيغها جميع العقلاء ، ولا يقتصر قبولها على فرد دون فرد ، أو فئة دون فئة .

ثانياً : ان حكمك بأن هذا صواب ، أو خطأ لا يدل على انه كذلك في واقعه ، وانما يدل على احساسك وشعورك بأنه صواب أو أو خطأ ، وان أبيت الا انه صواب موضوعي ، أو خطأ موضوعي فمعناه انك قد اتخذت من نفسك مقياساً للعقل،وخولتها الحكم على الأشياء باسمه ، وهذا ادعاء مبالغ فيه .

ثالثاً : ان قولك : « لا أؤمن إلا بما لا يراه عقلي » معناه انك لا تؤمن بدين ، ولا بشريعة ، ولا بأخلاق ، ولا تلتزم بشيء إلا بما تستوحيه من نفسك لنفسك ، وهذا يناقض قولك : « أنا مؤمن متدين» . وأي انسان تتناقض أقواله وآراؤه ، ولا ينسجم بعضها مع بعض لا يكون في واقعه من أرباب العقائد في شيء ، دينية كانت أو زمنية ، أما ظنه وشعوره هو بأنه من ذوي العقائد الراسخة ، والمبادىء الثابتة فانه نتيجة طبيعية لتناقضه في آرائه ، وانقسامه على نفسه .

رابعاً : لو أخذنا بنظريتك هذه لوجب ان يختلف الدين باختلاف الآراء والأشخاص .. ان المؤمن المتدين هو الذي يأخذ الدين من أهل

المعرفة والاختصاص الذين قضوا السنوات الطوال في البحث عن أحكامه، والتنقيب في مصادره، تماماً كما يأخذ المريض العلاج من الأطباء العارفين، ولا يثق بحدسه وخياله .

وبالتالي ، فان اتهام المرء لآرائه التي لم يأخذها من معينها ومصدرها يقربه من الواقع ، أما الذي يثق بها كل الثقة فانه يعيش في دنيا لا واقع لها ، وفي عالم لا وجود له الا في مخيلته وأوهامه .

الامام

الإمام :

الإمامة في مفهوم الشيعة الإمامية وعقيدتهم رئاسة دينية وزمنية يتولاها رجل عالم بما يصلح الناس في شؤون دينهم ودنياهم ، ويعمل على ذلك دون أن يستأثر عنهم بشيء ، ولا يخطىء في علمه ولا عمله .

فالإمام في حقيقته وطبيعته انسان كسائر الناس لا يختلف عنهم إلا في الصفات التالية :

١ — انه يعلّم الشريعة بجميع أحكامها ودقائقها وأسرارها ، تماماً كما هي في واقعها ، وكما نزلت على محمد (ص) ، بحيث لا يجوز الخطأ واحتمال الخلاف في معرفته لها ، بخلاف غيره من علماء الشريعة الذين قد يصيبون وقد يخطئون ، ومن أجل ذلك جاز أن يخطّىء بعضهم بعضاً ، ويناقشه بالدليل والبرهان ، أما الإمام فلا تجوز مناقشته والرد عليه بحال.

وتنبغي الاشارة هنا إلى ان الإمامية يعتقدون بأن الإمام ليس واضعاً للأحكام بنفسه ، وجاعلها من تلقائه .. بل ان واضعها ومشرّعها هو الله جل وعز ، وانه بيّنها لنبيه محمد ، وان محمداً (ص) بيّنها للإمام مباشرة أو بواسطة إمام فالإمام علم بها بعد وجودها وتشريعها . وبكلمة

انه مبلّغ عن الرسول ، والرسول مبلّغ عن الله . قال الإمام علي في الخطبة الـ ١٢٨ من خطب النهج : « علمٌ علّمه الله نبيه ، فعلّمنيه ، ودعا لي بأن يعيه صدري وتضطمّ عليه جوانحي » .

٢ – إن الإمام يعمل بالحق ، أي ينسجم مع علمه وقوله ، ولا يحول بينه وبين العمل به هوى ولا خطأ ونسيان .. وأيضاً تنبغي الاشارة – هنا – إلى أن الإمام في عقيدة الإمامية غير مجبور ولا ملجأ إلى العمل بالحق .. بل فيه قدرة نفسية تردعه عن الباطل ، مع قدرته على فعله ، وتدفعه إلى العمل بالحق ، مع قدرته على تركه .

أما الدليل الذي اعتمده الإمامية في اضفاء هذا الوصف على الإمام فهو العقل بضميمة قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم – ٥٨ النساء » . وقوله : « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون – ٥٨ المائدة » . لأن أمره تعالى بطاعة الإمام – وهو ولي الأمر – واقترانها بطاعته وطاعة الرسول ، يكشف بحكم العقل ان الإمام عالم ومعصوم عن الخطأ في علمه وعمله ، والا لو جاز الخطأ والخطيئة عليه لكان الله مريداً لها ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

٣ – بعد ان فرض ان الإمام يعلّم الحق ويعمل به يكون نصبه وتعيينه للإمامة أمراً طبيعياً غير منوط باقتراع المنتخبين وارادة المحكومين وانما يرشد اليه النبي (ص) ، ويدل عليه كما دل على وجوب الصوم والصلاة ، والحج والزكاة،وهذا معنى قول الإمامية : ان الإمام يعرف بالنص من الرسول الأعظم (ص) ، وقول العارفين من أهل الانصاف بأن صفات علي تنص عليه بالإمامية ، وتعيّنه لها بحكم العقل والعدل .

المثل الأعلى والواقع :

وتقول : ان هذا المبدأ من الوجهة النظرية صحيح ، ومثل أعلى لا

يقبل الشك والجدال ، بل يطمح الى تحققه كل انسان ، ولكن المثل الأعلى شيء، والواقع شيء آخر ، حيث لا نعرف أحداً في هذا الوصف بخاصة في زماننا هذا .

الجواب :

ان الامامية لا يدعون ظهور هذا الإمام الآن ، واتصال الناس به واتصاله بهم فعلاً وانما يقولون : ان الذي تجب طاعته هو العالم المعصوم عن الخطأ والزلل ، فان لم يكن بهذا الوصف فهو غير واجب الطاعة ، ولا منصوب ومختار للإمامة من عند الله ، بل من الذين أرادوه وارتضوه لذلك . وبالاختصار لا يجب على أي انسان ان يتابع ويطيع انساناً آخر إلا إذا كانت متابعته وسيلة للعمل بالحق ، تماماً كمن يحترم العالم لعلمه، ويعظم الأمين لأمانته ، لا لشخصه .. أما طاعة الحاكم لا لشيء إلا لأنه حاكم وكفى ، حتى ولو كان جاهلاً فاسقاً فانها لا تجب عند الإمامية ، بل هي من أعظم المحرمات ، بل تجب معارضته ومقاومته مع الأمن وعدم خوف الضرر .

هذي هي الإمامة التي يعتنقها الشيعة ، ويدينون بها ، كمبدأ وعقيدة فأي بأس بها ، أو محذور يلزمها ؟. وما هي الأضرار والمفاسد المترتبة عليها سوى القول بأنها أمنية ، وحلم من الأحلام الجميلة التي لم يكتب لها الفوز والانتصار .

وجوابنا على ذلك ان إعراض الناس عن القيم والمثل العليا لا يخرجها عن حقيقتها ، ولا يستدعي جحودها وعدم الايمان بها . هذا الى أن الترابط وثيق بين الواقع الاجتماعي وبين أسلوب التفكير . وان التطور والتقدم ينبثق من النظرية الواعية ، وقد تركت عقيدة الإمام المعصوم أحسن الآثار وأقواها في الحياة الانسانية لأنها كانت وما زالت حرباً على الارستقراطية التي تعتمد على المولد والثروة والجاه، وعلى من يحكم ويتحكم في أمور الناس بالقهر والغلبة ، وعلى من يدعي انه يحكم بأمر الله، وهو

منغمس بالجريمة الى أذنيه .. كما انها تناصر الحرية والديمقراطية التي تكل الحكم الى ارادة الناس في غياب الإمام المعصوم .

حكم الحق والعدل :

وبالتالي ، فان الشيعة الإمامية كانوا وما زالو إلى اليوم ، وإلى آخر يوم يدعون الى حكم الحق والعدل بشتى الوسائل ، وهم يطمعون ويأملون ان يتحقق هذا الحكم في يوم من الأيام ، حيث يعتقدون جازمين بأن دولة الباطل ، مهما عظمت وامتد سلطانها ، فانها إلى زوال ، وان النصر في النهاية للحق والعدل .. وهذه الحقيقة قد فطر عليها كل انسان ، وان لم يشعر بها ويلتفت اليها . والفرق بين الشيعة وغيرهم ان الشيعة أدركوها ، وعرفوا قبل سواهم ان الحياة لا بد ان تنتهي الى الصلاح والخلاص من الادواء والاسواء ، وان الناس ، كل الناس ، سيعيشون في أحسن حال من الخير والرفاهية ، والأمن والعدل .. أما غيرهم فجرى على مبدأه من العمل بالقياس الباطل ، حيث قاس المستقبل الغائب على الشاهد الحاضر ، وآمن بأن الغلبة للشر في كل زمان ومكان .

ابن سبأ :

ولست أعرف أحداً أجهل وأغبى ممن نسب فكرة الإمامة الى عبدالله ابن سبأ ، وانه أصلها وباعثها ، لا أحد أجهل من هذا القائل ، لأن ابن سبأ خرافة لا أساس لها في الواقع ، وشخصيته اختلقها أعداء الشيعة للتشنيع عليهم ، والتنكيل بهم . كما قال الدكتور طه حسين في كتاب « علي وبنوه » وأثبت ذلك بالأدلة الحسية ، والأرقام التي لا تقبل الريب السيد العسكري في كتابه الخطير الشهير « عبدالله بن سبا » الذي طبع أكثر من مرة .

ان المصدر الأول لفكرة الإمامة هو القرآن الكريم ، والسنة النبوية . قال تعالى في الآية ١٢٤ من سورة البقرة : « قال اني جاعلك للناس إماماً » . والآية ٢٤ من سورة الفرقان : « واجعلنا للمتقين إماماً » . والآية ٧٣ من الأنبياء : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » . والآية ٥ من القصص : « ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» . والآية ٢٤ السجدة : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

وجاء في صحيح البخاري ومسلم ، وغيرهما من كتب الحديث : « الأئمة من قريش » . والتوضيح في الفصل التالي ، فانه متمم لهذا الفصل .

حل المشكلات

المشكلات الاجتماعية :

بماذا تحل مشكلات الجماعة ، وما تعانيه من بؤس وشقاء ومظالم ؟ وما هي الوسيلة التي تقضي على الفقر والمرض والجهل؟ وهل من الممكن أن تعيش الانسانية بلا أحقاد وأضغان ، وفتن وحروب ، أو ان هذه الأدواء والأوباء من لوازم الحياة التي لا تنفك عنها بحال ؟ وبالتالي ، هل لهذه الأسئلة أجوبة حاسمة قاطعة ؟

النظام الشيوعي :

قال من لا يؤمن إلا بالمادة والاقتصاد : ان كل ما في الناس من مظاهر ، وكل ما يصدر عن الانسان يرجع الى نظام اقتصادي انتاجي معين ، حتى الشاعر الذي يتغنى بجمال الطبيعة ، والموسيقي الذي يضع الألحان ، وابتهاج الانسان بالأصدقاء والأخوان ، واغتباط الأم بولدها ، وحتى الحدائق في الدور ، والقطع الفنية على الجدران ، كل ذلك وما

اليه يتولد وينبثق عن الاقتصاد ، بل ان الزهد في الدنيا وما فيها سببه الاقتصاد ، بل ان الكعبة وهيكل سليمان ، والمساجد، والحضرات المقدسة ، وكاتدرائيات القرون الوسطى لم تبن الا وسيلة للمال .. وسقراط الذي شرب السم ، وهو يعلم انه ميت لساعته لم يشربه إلا لدافع اقتصادي ... وكذلك جميع الشهداء الذين تقدموا للموت برباطة جأش وطيب نفس لا دافع لهم إلا الاقتصاد وحده ، لا شريك له ، منه كل شيء، واليه المصير .

ورتبوا على ذلك ان النظام الاقتصادي إذا تغير تغير المجتمع وانحلت مشكلاته ، وعاش في أحسن حال ، وأهدأ بال .

وأيسر عيوب هذا المذهب انه يفصل الانسان عن عقله وعاطفته ، وعن تربيته ومجتمعه ، ويسجنه في نطاق الاقتصاد فقط لا غير .. وليس من شك ان الكثير من الدوافع والصلات بين الناس ترتكز على الاقتصاد، ولكن الشيء الذي تأباه البديهة أن يكون وراء كل ظاهرة للانسان ، وكل موقف عقلي أو عاطفي حاجةً مادية ومصلحة اقتصادية .. ان الانسان يجمع بين الروح والمادة ، وليس في وسعه التخلص من أحداهما ، حتى ولو كان شيوعياً عريقاً في شيوعيته ، لأنه في واقعه انسان كسائر الناس من جسم وروح ، ولكلٍ لوازمه ومقتضياته التي لا تنفك عنه بحال .

النظام الديمقراطي :

وقال أنصار الرأسمالية أو « العالم الحر » كما يسمون أنفسهم : لا حل الا في النظام الديمقراطي وحرية التجارة والتملك .

ويكفي للرد على هؤلاء ان الديمقراطية كما هي عندهم قد انبثق عنها الثراء الفاحش والفقر الفاحش ، وان بلادهم تنتج من الغذاء والكساء والأدوات أضعاف ما يحتاج اليه السكان ، ومع ذلك يوجد فيها الجياع والعراة والمشردون ، والسر ان هذه الديمقراطية قد أفسحت المجال للقلة

القليلة لاحتكار الثروة ومصادرها، وبالتالي لتحكّمها بحياة الناس ومصيرهم.. ان كلاً من الديمقراطية والشيوعية لا تضمن الحل الصحيح ولا ما يقرب منه ، لأن الأولى أخضعت السياسة لرجال المال والاقتصاد ، وحكّمت القلة بالكثرة ، والثانية أخضعت المال والاقتصاد لرجال السياسة المسيطرين على الحكم دون غيرهم ، والنتيجة الحتمية عدم الحزبة هنا وهناك .

وأعظم اسواء الاشتراكية ، كما هي في روسيا الأم الحنون لهذا النظام ، واسواء الديمقراطية كما هي عند الأميركيين سادة « العالم الحر » ان تجعلا فناء العالم رهناً بكلمة تخرج من شفتي أحد رجلين غير معصوم عن الأخطاء ، ولا منزه عن الأهواء . والرجلان هما رئيس اميركا ، ورئيس روسيا . أما الكلمة فهي الأمر بالقاء القنبلة الذرية على من يشاء من العباد والبلاد ، ومن الذي يأمن ويضمن أن لا يصاب أحد هذين بنوبة عصبية مفاجئة ما دام غير معصوم ، فيصدر الأمر بالفناء، وتتحقق الكارثة بين عشية وضحاها ؟.

العلم :

وقال آخرون : الحل الصحيح انما هو في تقدم العلوم .

والجواب : ان الناس لم يخشوا في يوم من الأيام من الخراب والدمار الشامل ، كما يخشونه اليوم ، حيث تقدم العلم ، وحيث أصبح العلماء أدوات في أيدي الحاكمين والمتولين يسيرونها في المصانع والمختبرات وفقاً لاهوائهم وأغراضهم .

الجنس :

وقالت فئة تدعي انها من أتباع « فرويد » الطبيب النفسي الشهير ؛

قالت هذه الفئة : ان الحل يكمن في اباحة النساء للرجال ، حتى المحارم وانه كلما زادت الحرية الجنسية كلما كان ذلك خيراً للانسانية .

وهذه دعوة خبيثة الى انطلاق الانسان مع نزواته الحيوانية ، والخروج به عن انسانيته الى طبيعة البهائم والانعام ، بل أحط وأدنى[1] .

الإمام المعصوم :

وقال الشيعة الإمامية : ان الحل الصحيح الدائم هو في حكم حاكم عالم معصوم عن الخطأ والزلل . أما معرفة هذه الفكرة وبواعثها فيتضح مما يلي :

ان للانسان حاجات يستدعيها أصل وجوده بما هو موجود بصرف النظر عن أي شيء آخر ، فكما انه في وجوده يحتاج الى حيز يشغله كذلك يفتقر في حياته واستمرارها الى الغذاء والمأوى والكساء وما اليه مما لا بد منه ولا غنى عنه .

ويضاف الى هذه الحاجات التي يستدعيها كيانه الطبيعي حاجات أخرى يقتضيها وجوده الاجتماعي ، كالزواج الشرعي والتعليم والأمن والمساواة ونحوها ، وسد هذه الحاجات حق من حقوق الانسان ، ولكن أية قوة تحفظها له وتضمنها ؟ هل التشريعات والقوانين ، أو الارشادات والمواعظ ، أو الايمان بالمثل والمبادىء ، أو التعليم والتثقيف ؟

وقد امتلأت الدنيا بالتشريعات والقوانين ، ولكن يعوزها التنفيذ والتطبيق ، حتى على الذين وضعوها وشرّعوها . أما الوصايا والمواعظ فانها أشبه بالجرائد اليومية تُقرأ ثم تترك للصرّ أو لسلة المهملات ، وليست

---

١ سمعت من يقول : ان فكرة اشاعة الأموال والاعراض اختلقها الصهاينة ، لبلبلة الأفكار ، وصرف الأنظار عن خططهم من أجل السيطرة على العالم .

القيم والمثل بشيء عند الأكثر أمام تهديد المصالح والمنافع، فلم يبق الا الانسان الكامل الذي يعلم حاجات الناس وما يصلحهم، ويملك القوة لدفع الضرر عنهم، وجلب المنافع لهم، ولا همّ له الا أن يستريحوا ويسعدوا، ولا يفضّل نفسه بشيء، حتى عن أضعفهم، فان شبعوا كان آخر من يشبع، وان جاعوا فهو أول من يجوع. وبكلمة يكون مصداق الآية الكريمة: «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» وللحديث الشريف: «انما أنا رحمة مهداة» تماماً كرب العائلة العطوف الذي يشعر بأنه مسؤول عن كل فرد من أفرادها، ويضحي بحياته في سبيلها.. وبديهة ان هذا لا يكون ولن يكون الا لمن عصم الله، وأقصى عنه الأهواء والرغبات الا الرغبة في الخير والصالح العام.

الآيات والأحاديث:

جاء في بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ان لأعمال الجماعة التي ترتكز على الايمان والعدالة صلة وثيقة بسعادتها في هذه الحياة، وبُعدها عن المصائب والويلات، وان تهاونها في الحق، واصرارها على الفساد وارتكاب الحرام له تأثير فعال في شقائها، وما تعانيه من الأسواء والبلاء.

قال تعالى: «ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون — ٩٥ الاعراف».

وقال: «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم — ١٢ الرعد».

وقال: «ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم — ٥٤ الأنفال». وقال: «ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم[1] — ٦٦

---

١ من فوقهم كناية عن خيرات السماء، ومن تحت أرجلهم كناية عن خيرات الأرض.

المائدة » . وقال : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون — ٤١ الروم » . وقال : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم — ٣٠ الشورى » ، وما إلى ذلك من الآيات ، ويستفاد منها أمور :

١ — ان ظهور الفساد ، ومنه الفقر والمرض والجهل ، انما هو من حكم الأرض لا من حكم السماء ، ومن أيدي الناس باماتة الحق واحياء الباطل ، لا من قضاء الله وقدره ، وان أية جماعة عرفوا الحق وعملوا به عاشوا في سعادة وهناء .

٢ — ان التعبير في الآيات الكريمة بقوم وبالناس يدل على ان الشقاء مستند الى عصيان الجماعة ، وان مجرد صلاح فرد من الأفراد لا يجدي شيئاً ما دام بين قوم فاسدين ، بل ربما جر صلاحه عليه البلاء والشقاء لوجوده في بيئة فاسدة ، قال جل وعز : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة — ٢٥ الأنفال » أي ان الآثار السيئة لمجتمع من المجتمعات تعم جميع أفراده الصالحَ منهم والطالح .. فان الشعب الخانع الخاضع للعسف والجور لا بد أن يعيش أفراده في الذل والهوان ، حتى الأحرار الطيبين .

أما الأحاديث في هذا الباب فلا يبلغها الاحصاء ، منها : « ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم أشرارهم » ونقض العهد هو عدم العمل بالحق والأمر به ، ومنها : « وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر .. وما حبسوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر » والمطر هنا كناية عن الخيرات ، ومنها : « إذا لم يحكموا بما أنزل الله جعل بأسهم بينهم .. وإذا عملوا بالمعاصي صرفت عنهم الخيرات .. ثلاثة تعجل عقوبتها ، ولا تؤخر الى يوم القيامة : عقوق الوالدين ، والبغي على الناس وكفر الإحسان .. » ومنها : « إذا كذب السلطان حبس المطر وإذا جار هانت الدولة » .

وفي الدعاء المروي عن الإمام : « اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم ، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء ، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء ، اللهم اغفز لي الذنوب التي تقطع الرجاء » .

وعمل المعاصي والحكم بغير ما أنزل الله ، ونقض العهد والبغي على الناس وكذب السلطان — كل ذلك وما اليه مما جاء في الحديث والقرآن كناية واضحة وتعبير صريح عن فساد الأوضاع والمظالم الاجتماعية، وعن « التراست » والتنافس على السيطرة واحتكار الثروات ، وعن الفوضى والفساد والتهتك والخلاعة ، ونحوها . وقد اتفقت في هذا العصر كلمة المؤمنين والجاحدين والروحيين والماديين ان فساد الأوضاع سبب الانحطاط والتدهور والشرور والويلات . لقد كشف الاسلام عن الصلة الوثيقة بين فساد الأوضاع وبين آلام الانسانية ، ومدى تأثير تلك في هذه . وسبق الى معرفة هـذه الصلة كل مفكر ومصلح وعالم من قادة الاشتراكية والشيوعية والديمقراطية وغيرهم . ولكن ما الحيلة في الجهل « المطبق » ان صح التعبير الذي ينسب كل فضيلة ومعرفة الى الأجنبي البعيد،وينفيها عن أهله وقومـه الذين هم أصلها ومصدرها ، وأولها وآخرها ، وان كان لدى غيرهم من شيء يُذكر فعنهم أخذوا ، ومنهم اقتبسوا ؟..

٣ — ان المراد بالايمان والتقوى في الآيات والأحاديث هو — بعـد الايمـان بالله — التصديق بالخير كمبدأ ، والعمل الصالح النافع للفرد وللناس أجمعين . أما لبس المسوح ، واقامـة الشعائر دون ان تعمر القلوب بروح التدين الصحيح فليس من الإيمان في شيء .. وقد جاء في الحديث : « ما آمن بالله من بات شبعاناً وأخوه جائع .. خير الناس أنفع الناس للناس .. من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم .. عـدل ساعة أفضل من عبادة سبعين سنة » .

وهذا الإيمان بمعنى العمل الانساني الذي ينتج السعادة الشاملة لا يتحقق ولن يتحقق إلا اذا تولى السلطة إمام فوق الشبهات ، لا يجوز عليه الخطأ

والخطيئة . أما إذا تولاها من لا حصانة له فلا محيص عن وجود المشكلات والنكبات ، سواء أكان الحاكم فرداً أو فئـة ، ما داموا جميعاً عرضة للاخطاء والميل ، مع الأهواء .. وبهذا نجد تفسير ما جاء في الحديث : « ان في ولاية العادل احياء الحق كله ، واحياء العدل كله . وان في ولاية الجائر دروس الحق كله ، واحياء الباطل كله » ، وتفسير قول أمير المؤمنين : « اذا أدى الوالي حق الرعية عز الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل ، وجرت على أدلتها السنن ، فصلح بذلك الزمان » . وقـد اشتهر على الألسن : اذا اعتدل السلطان اعتدل الزمان .

أما الإيمان بمعنى الصوم والصلاة ، وبناء المساجد ، ورفع المـآذن فيتحقق مع وجود المعصوم وغيابه .

وبالتالي ، فان الإمامية يعتقدون بأن الحضارة والمدنية والتقدم بمعناه الصحيح لا يكون إلا بإقامة العدل ، واشاعـة الأمن والرفاهية ، والا بالقضاء على الظلم والفقر والجهل ، وان بناء المجتمع الصـالح السليم في دينه ودنياه لا يتم إلا على يـد إمام معصوم أو عالم عـادل .. ومن تتبع ، وتدبر القرآن الكريم ، والسنة النبوية يجد لهـذه العقيدة جذوراً ثابتـة فيهما ، وأصولاً جلية واضحة لا تقبـل التأويل ، ولا القال والقيل .

حكم الفرد :

وتقول : ان حصر السلطة بالإمام المعصوم معناه حكم الفرد الذي لا يناط بإرادة المحكومين وانتخابهم ، وليس من شك أنه غـير مرغوب فيه في هذا العصر .

الجواب ·

ان المنتخب حقاً .هو الذي يعمل على سعادة المحكومين ومصلحتهم ، أما مجرد رفع اليد والادلاء بالصوت فليس من الانتخاب الصحيح في شيء اذا انحرف المنتخب مع أهوائه ، وعمل لصالحه ومنفعته ، بخاصة اذا كان الناخب مرتشياً أو جاهلاً ومخدوعاً مضللاً بالدعايات الزائفة والمواعيد الكاذبة ، كما هو الشأن في جميع الانتخابات أو أكثرها ، ومن هنا جاء في القرآن الكريم : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون — ١٨٦ الاعراف » : « وأكثرهم لا يعقلون — ١٠٦ المائدة » : « ولقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون — ٣٤ التوبة » .. اذن وجود الحق لا يناط بارادة الموافق أو المخالف ، فان للانسان تمام الحرية في أن يقعد أو يقف ، ولكن ليس له أن يترك الحق ويفعل الباطل ، بل ليس له أن يختار المفضول مع وجود الأفضل . وقد روى السنة والشيعة عن النبي انه قال : « من استعمل رجلاً من عصابة ، وفيهم من هو أرضى منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

وعلّق أديب معاصر على هذا الحديث بقوله : « أجل ان الأيدي القوية النظيفة العادلة البارة هي وحدها التي تؤمَّن على مصاير الخلق ، وحاجات الناس . ان الحكم تضحية لا تجارة ، وخدمة لا استيلاء » .

وبكلمة ان المعصوم هو الحق مجسماً في شخصه ، والعدل المحسوس الملموس ، ومن هنا وجبت طاعته ، وحرمت مخالفته ، يضاف الى ذلك كله انه ليس في ميسور أيما امرىء أن يمثل غيره تمثيلاً حقيقياً ، كما أثبتت التجارب .

نظام الإمام :

ما هو النظام الذي يطبقه الإمام ويعمل به ، لو تولى الحكم ؟ هل هو النظام الرأسمالي أو الاشتراكي ؟

الجواب :

ان نظامه أفضل نظام للبشرية على الاطلاق ، فهو يجمع بين صلاح الدين والدنيا للجماعات والأفراد ، ويسير بهم جميعاً في طريق الرفاهية والازدهار والأمن والعدل ، ويحفظ الحرية والكرامة للجميع ، ولا يدع مجالاً للطمع والجشع ، ولا للاستغلال وسيطرة فئة على فئة ، أو فرد على فرد .. وبكلمة انه نظام الانسانية الذي يحقق الخير والصلاح العام في شتى الميادين بدون استثناء ، وبعد هذا سمه بأي اسم شئت .

وتحقيقاً للهدف المطلوب يُترك للامام اختيار الوسائل التي تحققه من التأميم وغيره اذ بعد ان افترض فيه العصمة يكون له جميع ما للنبي (ص) من الولاية على الأنفس والأموال .. وبديهة ان العصمة تنأى بـه أن يفعل الا لمصلحة المولى عليه . قال السيد محمد بحر العلوم في كتاب « البلغة » : « ان سلطة الإمام على الرعية ليست كسلطة السيد على مملوكه ، الجائز له التصرف لمحض التشهي .. بل لمصلحة ملزمة راجعة الى نفس المولى عليه ، لأن الإمام في مرتبة المكمل للنقص الذي اقتضى اللطف وجوده » .

واللطف عند الإمامية ما يقرب الانسان من الخير ، ويبتعد به عن الشر ، وهي مهمة الإمام المعصوم .

وبهذا يتبين معنا ان الإمامية آمنوا بفكرة الإمام المعصوم ، ووجوب حصر السلطة به للآيات والأحاديث ، ولتحقق السعادة الدنيوية والاخروية التي يطمح اليها كل عاقل ، ونعيد هنا الملاحظة السابقة مع جوابها ، أما الملاحظة فهي ان فكرة الإمام المعصوم صحيحة كنظرية ، أما من الوجهة العملية فأين هو هذا الإمام حتى نطيعه ونتابعه ؟

والجواب :

أولاً : إنا نتخذ من هذه النظرية سلاحاً ضد حكام الظلم والجور .

ثانياً : ان كل نظام وجد ، وعمل به نشأ أول ما نشأ في عالم

العقل ثم تحوّل الى العمل .. وقد بقيت الاشتراكية نظرية بحتة وفلسفة مجردة يدور حولها النقاش والجدال السنين الطوال قبل أن تبرز الى حيز الوجود .

قال « برتراند راسل » في كتاب « راسل يتحدث عن مشاكل العصر » : « ان الفلسفة تتألف من التخمينات حول الأشياء التي لا يمكن بعد أن تتوفر المعرفة الدقيقة المضبوطة بها .. وانها تحافظ على استمرار ملكة التصور والتخمين في دقائق الأشياء .. واني لا أريد لمخيلات الناس ان تكون محصورة محدودة ضمن ما يمكن أن يكون معلوماً في الوقت الحاضر .. وقد استنبط الفلاسفة القدامى مجموعة كاملة من الفرضيات والنظريات التي ثبت نفعها وصحتها فيما بعدُ ، والتي لم يمكن اختبارها يومذاك » .

وإذا تحققت نظريات الفلاسفة وافتراضاتهم بعد ألفي عام ، أو أكثر — وقد كان يظن انها محال — فمن الجائز اذن ، ان يظهر الإمام المعصوم ويتولى السلطة ، وتحل حكومته جميع مشكلات العالم ، ولو بعد سنين ، حيث تمهد الأسباب وتوجد المقتضيات .

ثالثاً : ان لكل مشكلة اجتماعية حلاً في نفس الأمر والواقع تختلف الأنظار في تحديدها ، وبيان حقيقتها ، ويرى الإمامية ان المشكلات الاجتماعية لا تحل ولن تحل حلاً جذرياً كلياً الا اذا حكم إمام معصوم وبدونه تحل المشكلات حلاً موقتاً أو جزئياً ، ذلك ان الصواب لا يأتي من الخطأ ، والحق لا يتولد من الباطل .

هذا ، الى ان التجارب أثبتت وجود الترابط الوثيق بين اصلاح المجتمع ، وبين السلطة السياسية ، بخاصة بعد أن سيطرت الحكومة على جميع مظاهر الحياة من التربية والتعليم والعمل والأشغال والصحة والزراعة والدعاية والأنباء والشؤون الاجتماعية والقضاء .. وقد كانت مهمتها من قبل تنحصر في الدفاع عن الحدود من العدو في الخارج ، وحفظ الأمن

في الداخل ، فاذا لم تكن السلطة معصومة عن الخطـأ والزلل لم يتحقق الغرض المقصود منها ، وهو الصلاح والاصلاح الشامل الكامل .

رابعاً : ان نظام الحكومة البدائية كان أشبه بالنظام القبلي ، بل هو هو ، ثم تقدمت الحكومة مع الحياة شيئاً فشيئاً في شكلها ونظامها، حتى أصبحت حيث نراها اليوم . ويعتقد الإمامية انها ستتقدم بعدُ أكثر فأكثر ، حتى تبلغ الغاية في الكمال ، ويعيش الناس في ظلها سعداء آمنين ،وتكون نسبة الحكومات الحاضرة اليها ، تماماً كنسبة الحكومة البدائية الى حكومات اليوم . وما ذلك على الله بعزيز . أما مصدر هذا الاعتقاد فهـو فكرة الإمام المعصوم .

وبعد هذا ، فهل تراني بحاجة الى القول : ان فكرة الإمام المعصوم لا تتصادم مع منطق العقل ، بل يؤازرها ويناصرها . وان من يعارض هذه الفكرة فانما يعارض ويعاند الحق والخير والعدل ،من حيث لا يريد .

الدولة العامة العادلة

هذا الفصل :

نقلنا في الفصل السابق الأقوال في حل المشكلات وعلاج المعضلات الاجتماعية ، وانه يكمن في حرية التجارة والتملك عند الديمقراطيين « العالم الحر » ، وفي الاشتراكية ، أو الشيوعية لدى خصومهم ، وفي تقدم العلم عند آخرين ، وفي اباحة الجنس على رأي .. ولم نشر إلى قول من قال : لا علاج ولا شفاء إلا في الدولة العامة لجميع سكان المعمورة .. حيث كان العزم على أن نعقد فصلاً مستقلاً ، لأهميته من جهة ، ولاتصاله الوثيق بظهور الإمام المعصوم ، وعموم سلطانه من جهة أخرى.

حاكم واحد :

في سنة ١٨٣٨ أعلن الفيلسوف الأميركي « ويليام لويد غاريسون » المبادىء التي يؤمن بها ، فقال فيما قال :

« لا يمكننا أن نعترف بالولاء لأية حكومة بشرية ، إنّا نعترف فقط بملك واحد ، وبمشروع واحد ، وبقاض واحد ، وبحاكم واحد للجنس

البشري .. ان بلادنا هي العالم ، وكل الجنس البشري هم أبناء بلادنا ، إنّا نحب أرض بلادنا بمقدار ما نحب البلدان الأخرى ، فمصالح المواطنين الأميركيين وحقوقهم وحرياتهم ليست أعز علينـــا من تلك التي للجنس البشري »[1] .

ومن قبله بقرون قال الأديب الايطالي الشهير « دانتي » :

« يجب أن تخضع الأرض بكاملها ، وكل شعوبها لأمير واحد يمتلك كل ما يحتاج اليه ، فلا تنشأ عنده الرغبة في شيء لا يملكه .. فيخيم السلام ويحب الناس بعضهم بعضاً ، وتحصل كل عائلة على جميـــع ما تحتاج اليه »[2] . وهذه الدولة التي يعم فيها الخير ولا تقيم وزناً الا للتقوى هي التي دعا اليها القرآن الكريم والنبي العظيم ، وآمن الإمامية بصاحبها الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً . وغريب أن يسخر من كلمة « يملأ الأرض قسطاً وعدلاً » مثقف يدعي المعرفة بالأفكار والاتجاهات الغربية ، وهو أجهل الناس بالقديم والجديد ، وبآراء النيّرين في الشرق والغرب .

ان لهذه الفكرة جذوراً ثابتة في جمهورية افلاطون الذي سبق عصر السيد المسيح بأكثر من ثلاثة قرون ، وفي أقوال القديس اوغسطين ، وفي المدينة الفاضلة للفارابي ، ولها أنصار كثر من الفلاسفة والعلمـــاء والأدبـاء والقديسين ، منهم صموئيـل جنسون الانكليـــزي الذي قال : « الوطنية آخر ما يلجأ اليه الوغد » .. و « ليسنغ » الألماني القائل : « متى لا تعد الوطنية في عداد الفضائل » . ومنهم « فولتير » الأديب الفرنسي الشهير الذي قال : « يكون للفرد وطن واحد اذا كان يحكمه ملك صالح ، ولا يكون له أي وطن اذا كان يحكمه ملك شرير » .. ومن أقوال هذا المفكر : « ما تمنى أحد العظمة لبلاده الا تمنى التعاسة

---

١ تكوين العقل الحديث ج ٢ ص ٤١٨ طبعة ١٩٥٨ .

٢ المصدر السابق ج ١ ص ١٧٠ .

للآخرين » .. وقال غوته : « ان وطني الخير والنبل والجمال .. وبوسعنا أن نجد الراحة في الاتجاه الكوني » الى غير ذلك من أقوال المفكرين ، من اليساريين والمحافظين[1] . ومن الداعـين لهذه الفكرة في هذا العصر « برتراند راسل » الفيلسوف الانكليزي الشهير .

ان هذا المبدأ الذي هو في حقيقته التدين بوجوب الوحدة العالمية ، والولاء لقائدها الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، وحضارة تنعم بالسلام والنظام والرفاهية والازدهار . ان هذا المبدأ من أهم الفروق التي ميزت عقيدة التشيع عن غيرها من العقائد .

علة العلل :

لقد رأى الاسلام وهؤلاء الدوليون ان القومية مظهر غير طبيعي ولا عقلي ولا انساني ، وان الحدود الأرضية الجغرافية تفصل الانسان عن أخيه الانسان ، وبالتالي تعزله عن واقعه وانسانيته ، وان التعصب والاضغان وحب السيادة والسيطرة والتنافس على قيادة العالم ، واحتكار الثروات ومصادرها ، كل هذه وما اليها كمشكلة الأقليات وحماية الأجانب والشعوب المختلفة ، والدول الضعيفة ، والحروب والاستعمار لا مصدر لها الا القوميات والحواجز الأرضية ، فهي السبب الأول ، وعلة العلل ، ومتى اتحد العالم أجمع في دولة واحدة بقيادة حكيمة منزهة عن الأهواء ، بعيدة عن الأخطاء اتجه كل انسان اتجاهاً كونياً ،وشعر شعوراً

---

١ بالامس القريب أصدر عشرة من الأعضاء المحافظين في البرلمان الانكليزي كتاباً بعنوان « سلطة للامن » يشرحون فيه وجهة نظرهم بانشاء حكومة عالمية ، واستدلوا بتصريحات مكملان رئيس الوزارة ، ودنكان وزير الدفاع البريطانيين .

انسانياً شاملاً لا يحده وطن ، ولا ينحرف به تعصب الى عنصر أو أرض أو أي شيء .

وهذا تعبير ثانٍ عن فكرة الإمام المعصوم الذي قال الشيعة : انه يخرج في آخر الزمان ويوحد العالم تحت راية واحدة ، ويملأ الأرض عدلاً ، ويساوي بين الجميع حتى لا يُرى محتاج ، ولا تراق محجمة من دم .. ان الشيعة يؤمنون ايماناً لا يخامره الشك بهذه الدولة الشاملة وحضارتها الكاملة التي لا يوجد في ظلها كبير وصغير ، قوي وضعيف ، بل كلهم أقوياء أغنياء صلحاء ، انهم يؤمنون بها وبحضارتها كعقيدة راسخة ، لا كأمنية وأحلام ، كما هو شأن الطوبائيين . كما انهم يؤمنون أيضاً بأن الحضارة حقاً ليست في تقدم الصناعات وتكديس الثروات ، بل بإشاعة العدل والسلام وشمول الخصب ووفرة الطعام .

ولم يستوحوا هذه العقيدة من تاريخهم وبؤسهم ، ومن المظالم التي وقعت عليهم من الطغاة وحكام الجور — كما قيل — بل استقوها من الوحي الذي نزل على قلب محمد (ص) وأحاديثه التي امتلأت بها صحاح السنة والشيعة ، فقد أكدت وجود هذه الدولة وعدالتها وحضارتها وأخبرت عنها بشتى الأساليب والعبارات ، ووضع لها الشيخ الصدوق الذي مضى على وفاته أكثر من ألف عام ، كتاباً خاصاً في مجلدين كبيرين ، أسماه « اكمال الدين واتمام النعمة » ، كما خصص لها العلامة المجلسي المجلد الثالث عشر من بحاره .

الجاهل والمتشائم :

وإذا سخر من هذه الفكرة الجاهل الذي لا يرى إلى أبعد من أنفه ، واستبعدها المتشائم الذي لا ينظر إلا بمنظاره الأسود القاتم فإننا نؤمن بها ايماننا بالله ، وبأنفسنا : « انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » ومنطق العقل

والحق معنا ، أليس العالم في تغير مستمر ، والتماسك الاجتماعي في تقدم مطرد ؟!. اذن ، لا بد ان يصغى الى صوت العقل والضمير ، فيترك التعصب ، ويتنازل عن الأنانية في يوم من الأيام ، ويهدم الحواجز بين الانسان في أقصى الشرق ، وأخيه الانسان في أقصى الغرب . وهذا «راسل» أحد قادة الفكر في هذا العصر يقول : « من الممكن تطوير الأمم المتحدة ، بحيث تصبح نواة لحكومة عالمية .. واني لأرى عندما أسرح بخيالي عالماً من المجد والفرح ، عالماً تنطق فيه العقول .. كل هذا يمكن أن يحدث إذا سمحنا له » . (كتاب برتراند راسل الانسان لرمسيس عوض) .

واذا قال راسل وغيره : ان هذا لا يمكن إلا اذا سمحت الأجيال ، فنحن نقول مؤمنين ايماناً لا ريب فيه بأنه سيحدث لا محالة ، سمحت الأجيال أو لم تسمح ، لأننا على يقين بأن العاقبة للخير والفضيلة ، مهما طال الزمن ، سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

من هو الرجعي ؟

وبالتالي ، فان فكرة الإمام المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً فكرةٌ تقدمية علمية وواقعية ثورية[1] تهدف الى القضاء على الظلم والضعف وكل ما يعوق الحياة عن التقدم. ان فكرة صاحب الأمر والزمان لهي فكرة المجتمع النهائي الكامل في دينه ودنياه ، فكرة المجتمع الذي يحطم الحدود والسدود بين الانسان وأخيه الانسان ، ويقضي على التعصب والاضغان . انها فكرة الدولة الطاهرة النقية ، ومجتمع المساواة والاخاء والحب والصفاء .

---

١ كل حركة من شأنها أن تغير الوضع الاجتماعي أو الاقتصادي أو الفكري إلى أحسن ، فهي حركة ثورية ، أما هذه الشعارات المزيفة التي نراها اليوم هنا وهناك فانها لصوصية مبطنة .

اما الرجعيون حقاً ، اما الجاهلون جهلاً « مطبقاً » فهم الذين يرون هذه الفكرة سفهاً وهراء ، وفساداً وهباء .. وطبيعي ان يكذّب هؤلاء بالإمام المعصوم ، وينكروا وجود صاحب الأمر الذي يملأ الدنيا عدلاً بظهوره .. انه لطبيعي أن يكذبوا ويجحدوا ، لأنهم لا يجدون في دولته مكاناً للخونة والمنافقين الذين يبيعون دينهم وضميرهم للشيطان بأبخس الأثمان .

المهدوية واحمد امين

أحمد أمين كاتب منتج ما في ذلك ريب ، وقد سد انتاجه فراغاً غير قليل ، كما يرى كثيرون ، حيث انتهج في دراسة التاريخ الاسلامي نهجاً جديداً لم يسبقه اليه عربي من قبل ، ولكنه — كما هو في حقيقته كاتب طائفي لا واقعي ، فلقد عجز أن يتحرر من طائفيته وتربيته وبيئته ، برغم انه حاول ذلك ، وانضم الى دار التقريب الا ان العصبية الطائفية تغلبت — ويا للاسف — على معرفته وذكائه ، وجميع مؤهلاته .

وتقول : ان عين الشيء يصدق فيك ، ويقال عنك، حتى حكمك هذا على أحمد أمين لا مصدر له الا العصبية الطائفية ، لأنه قال الكثير مما يؤذي الشيعة ويسيء اليهم .. فأنت اذن تستنكر من غيرك ما تستحسنه من نفسك .

وجوابي عن هذا : اذا كنت أنا متعصباً كأحمد أمين ، فكن أنت منصفاً يصغي الى منطق العقل ، وينظر الى الواقع لا الظاهر ،والى القول لا الى القائل .. كن قاضياً مجرداً يستمع إلى أقوال الطرفين ، ثم تحكم بما يوحيه دينه ووجدانه ، وما يستدعيه منطق الحوادث ودلالة الأدلة الحسية ، بل نكتفي منك هنا ، وما نحن بصدده أن تستمع بتدبر وتعقل إلى أقوال أحمد أمين وحده ، وتحكم من خلالها له أو عليه .

في سنة ١٩٥١ ألّف أحمد أمين كتاب « المهدي والمهدوية » ونشرته دار المعارف بمصر في سلسلة « اقرأ » رقم ١٠٣ . وقد هدف من وراء تأليفه إلى انكار المهدي والرد على الشيعة ، ولكنه في الواقع أيدهم وناصرهم من حيث لا يريد ، أو من حيث يريد الرد عليهم ، وان دل هذا التناقض على شيء فانما يدل على صدق ما قلناه من انه كاتب طائفي لا واقعي ، واليك الدليل :

قال في ص ٤١ : « أما أهل السنة فقد آمنوا بها أيضاً » أي بفكرة المهدي .. وفي ص ١١٠ : « واما السنيون فعقيدتهم بالمهدي أقل خطراً » .. وفي هذه الصفحة : « قد كتب الإمام الشوكاني كتاباً في صحة ذلك ، سماه التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح » .. وفي ص ١٠٦ : قرأت رسالة للاستاذ أحمد بن محمد بن الصديق في الرد على ابن خلدون ، سماها « ابراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون . وقد فند كلام ابن خلدون في طعنه على الأحاديث الواردة في المهدي ، وأثبت صحة الأحاديث ، وقال : « انها بلغت حد التواتر » .. وقال — أي أحمد أمين — في ص ١٠٩ : « قرأت رسالة أخرى في هذا الموضوع عنوانها : الاذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة ، لأبي الطيب ابن أبي أحمد بن أبي الحسن الحسيني » .. وفي ص ٤١ : « وقد أحصى ابن حجر الأحاديث المروية في المهدي ، فوجدها نحو الخمسين » .

إذن ، ليس القول بالمهدي من خصائص الشيعة ، بل آمن به السنة ، ورووا فيه خمسين حديثاً ، وألفوا في وجوده واثباته الكتب ، وما دام الأمر كذلك باعتراف أحمد أمين نفسه فلماذا نسب القول به الى وضع الشيعة ، كما جاء في ص ١٣ و ١٤ ، حيث قال ما نصه بالحرف : « وأذاع الشيعة فيهم — أي في أهل المغرب — فكرة المهدي ، ووضعت الكلمة على لسان رجل ماهر ، اسمه عبدالله الشيعي ، يدعو للمهدي المنتظر » .

وبعد ان اعترف أحمد أمين – مرغماً – بأن السنة أيضاً يؤمنون بالمهدي المنتظر أحس انه في مأزق ، وانه لا بد أن يقال : ان الشيعة محقون في عقيدتهم ، مع أنه يريد ادانتهم على كل حال ، فاستدرك وقال : ولكن عقيدة السنة بالمهدي أقل خطراً ..

وليت شعري كيف يجتمع قوله هذا ، مع قوله في ص ٤١ : «ان فكرة المهدي والتشيع كانت سبباً لثورة شبت ودامت سنين ..» وقوله في ص ٣٣ : « ومن فضل الشيعة انهم كانوا في بعض مواقفهم ، وفي اعتقادهم بالأئمة المهتدين يؤيدون الدين » .. ومع قوله في ص ٣٤ : « ومن فضل الشيعة انهم كانوا مؤمنين، يدافعون عن الاسلام في الخارج ضد الصليبيين الذين يهجمون على بلادهم ، وفي الداخل ضد من أنكر الدين ، وجحد النبوة » .. وفي ص ٣٧ : « ولكن الحق يقال ان التشيع دائماً ينصر الفلسفة أكثر مما ينصرها السنيون » .

وإذا كان الشيعة يدافعون عن الاسلام والمسلمين، وإذا كانوا يناصرون الفلسفة أكثر من السنة ، وإذا كانت عقيدتهم بالمهدي والأئمة المهتدين تدفعهم إلى الثورة على الظلم والظالمين .. فكيف اذن تكون عقيدة السنة بالمهدي أقل خطر ؟! ألا يدل هذا التناقض على طائفيته وتعصبه ، وانقسامه على نفسه ؟!

ولسنا نستكثر على أحمد أن ينكر وجود المهدي المنتظر ، ويخالف المسلمين جميعاً السنة منهم والشيعة بعد أن أنكر عصمة الرسول الأعظم (ص) صراحة . قال في ص ٩٥ : « وقد ثارت خلافات في عصمة الأنبياء بالطبيعة ، ورووا ان رسول الله (ص) قال : توبوا إلى ربكم ، فاني أتوب اليه في اليوم مئة مرة ، وقال : انه ليغان على قلبي[1] . فهذه الأحاديث ونحوها لا تؤيد معنى العصمة التامة » .

---

١ أي غيمت الشهوة على قلبه .

وبديهة ان الاسلام بعقيدته وأخلاقه وشريعته ، وجميع تعاليمه وأحكامه يرتكز على عصمة محمد (ص) ، فمن أنكرها أو شك فيها فقـد أنكر أو شك في الإسلام ، وبنبوة سيد الأنام من الأساس .. لأن الغاية من نبوته ورسالته رفع الخطأ من الهداية وحمل الخلق على الحق ، فإن لم يكن معصوماً فلا يتحقق المقصود منها ، وبالتالي لا يكون نبياً .. استغفر الله وأعوذ به من الشك والغفلة .

وبهذا يتبين معنا ان كتاب « المهدي والمهدوية » ليس رداً على الشيعة فحسب ، وانما هو في واقعه رد على الاسلام والمسلمين ، وإذا تحامل على الشيعة أكثر من تحامله على غيرهم ، فانه مدحهم وذم السنة بمنطق التاريخ ، ومن حيث لا يحس ولا يريد ، قال : ان أدباء السنة كانوا يمدحون الطغاة ، وحكام الجور ، أما أدباء الشيعة فكانوا يمدحون أئمة الهدى والحق ، فقد جاء في ص ٨٦ من كتاب « المهدي والمهدوية » : « ولئن كان كثير من الأدب السني كان يقال في مدح الخلفاء والملوك والأمراء السنيين ، فان الأدب الشيعي كان يقال في مدح الأئمة والرثاء الحار في قتلاهم » .

أجل ، مدح أدباء السنة الطغاة وحكام الجور رغبة في المال والحطام . ومدح أدباء الشيعة أئمة الهدى والعدل ايماناً بالله وعظمته ، وولاء للرسول وأهل بيته ، ولم يثنهم عن هذا الإيمان والولاء القتـل والصلب ، ولا السجن والتشريد ، ولا التقييد بالسلاسل والأغـلال ، ولا قطع الأيدي والأرجل ، بل ولا الدفن تحت التراب أحياء .. ذلك ان الشيعة يسخون بحياتهم ورؤوسهم ، ولا يسخون بدينهم وعقيدتهم . أما الانتهازي فلا دين له ولا مبدأ إلا الدراهم والدنانير .

قال أحمد أمين في ص ٨٥ : « ان الشيعيين اضطهدوا من السنيين ، وكانوا يدعون — أي السنة — انهم يفعلون ذلك دفاعـاً عن أنفسهم ، ولكن كانت غلطة يزيد بن معاوية في قتل الحسين غلطة كبرى لم يمكن

أضر منها ، فظلت تعمل عملها على طول الأزمـــان . ولم يكتف السنيون بذلك بل جعلوا يقتلون كل إمام طالبي يظهر ، ونحن اذا قرأنا كتاب « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهاني رعبنا من كثرة ما وقع على العلويين من قتل وتعذيب وتشريد » .

هذا هو المبدأ ، وهذه هي الفلسفة لحكم من حكم من السنيين: القتل والتعذيب والتشريد، باعتراف صاحب المهدي والمهدوية، وليس هذا بغريب ولا بعجيب ممن حكم بالقهر والغلبة ، ولكن العجيب الغريب أن يشير أحمد أمين من طرف خفي إلى الاعتذار عنهم بهذه الجملة المعترضة : « وكان السنة يدعون انهم يضطهدون دفاعاً عن أنفسهم » .. وظاهر انه يريد بالدفاع عن النفس الدفاع عن حكم البغي والجور .

بقي علينا أن نشير في هذا الفصل إلى أمر يدل على ذهوله أو عدم تتبعه ، وانه يكتب دون أن يتثبت ، حتى حين يكتب عن السنة . لقد تحدث أحمد أمين في «ضحاه» عن الحديث بوجه عام، وعن صحاح السنة بوجه خاص ، وعن البخاري ومسلم وصحيحهما بوجه أخص . (أنظر الفصل الرابع من ضحى الاسلام المجلد الثاني) والذي تبين من كتاب « المهدي والمهدوية » انه يجهل أحاديث الصحـــاح قال في ص ٤١ : « ووضع كل — من السنة والشيعة — الأحاديث في تأييد المهدي المنتظر. ومما يشهد بالفخار للبخاري ومسلم انهما لم تتسرب اليهما هذه الأحاديث، وان تسرب الى غيرهما من الكتب التي لم تبلغ صحتها .

هذا، مع العلم بأن مسلماً روى في صحيحه عن النبي انه قال: «يكون في آخر أمتي خليفة يحث المال حثياً ، لا يعده عداً »[1] .

---

١ القسم الثاني من الجزء الثاني باب لا تقوم الساعة ، حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت ، وجاء في التعليق ان الترمذي وأبا داود قالا هـــذا الخليفة هو المهدي . وجاء في صحيح البخاري ج ٩ كتاب الاحكام باب الأمراء من قريش : «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منها اثنان » .

وبالتالي فان كتاب « المهدي والمهدوية » يسجل على صاحبه جهلـه بالاسلام وعقيدته ، ومصادرها السنية والشيعية ،وتحاملهعلى الشيعية وأجهل منه من يعتمد على آثاره ، وينقل من أقواله كحقيقة ثابتة . ولا شيء أدل على ذلك من قوله في ص ١٢٠ : « اني اعتمدت أكثر ما اعتمدت على الكتب السنية التي وصفت عقائـد الشيعة » . وهذا اعتراف صريح بأنه حكم على المدعى عليه لمجرد قول المدعي ، واتخذ من الخصم حكماً وحاكماً على خصمه .. وهذا منهجه في كـــل ما كتب عن الشيعة .. وإذا أردت تفسيراً صحيحاً لشخصية أحمد أمين واضرابـه فاقـــرأ الفصل الأول من هذا البحث .

العصمة في اسلوب جديد

المعصوم هو الذي لا يمكن اتهامه بالأهواء والأغراض ، ولا بالجهل والأخطاء ، لا لشيء إلا لأنه انسان كامل بكل ما في الكمال الانساني من معنى .

والذين أوجبوا العصمة بهذا المعنى للانبياء وحدهم ، أو لهم ولخلفائهم الحقيقيين استدلوا بأن الناس في حاجة إلى معلم مرشد ، فان كان هذا المعلم عرضة للاخطاء احتاج إلى من يعلمه ويرشده ، وهكذا إلى ما لا نهاية .

وتقول : ان علماء الشريعة الاسلامية معلمون ومرشدون،وعلى الجاهل أن يقلدهم ويعمل بأحكامهم بدون مراجعة وسؤال ، ومع ذلك لا تجب لهم العصمة باتفاق الجميع . اذن ليس من الضروري للمعلم والمرشد أن يكون معصوماً .

الجواب :

ان الفرق كبير جداً بين النبي والعالم ، فان العالم يجدّ ويجتهد في في البحث والتنقيب في الكتب ، وعند الأساتذة والرواة، ويعتمد القرائن وظواهر الألفاظ ، ويفتي بموجبها اجتهاداً وعملاً بالرأي ، بعد اليأس

من الظفر بغير ما وصل اليه ، وقد يخطىء في فتواه ، إذ من الجائز أن يفهم من الظواهر غير ما تدل عليه ، لشبهة في خياله ، بل قد لا تكون تلك الظواهر والقرائن من الأدلة في شيء إلا في ظنه وحسبانه ، ومن الجائز أيضاً أن يكون هناك دليل على العكس ، ولكنه خفي عليه وعجز عن الوصول اليه ، ومن هنا يسوغ لعالم آخر أن يقف له ويناقشه في فهمه ومعرفته ، وان كان دونه فضلاً وعلماً ، كما له أن يعدل عن رأيه إلى ضده ، أو يقلّم فيه ويطعم ، إذا استبان لديه الحق ، وهو معذور في ذلك ، حتى لو عدل من الصواب إلى الخطأ ، ما دام السبيل إلى المعرفة منحصراً فيما استخرجه من الدليل الذي استبان له بعد افراغ الوسع والجهد في البحث والتنقيب .

أما تقليد الجاهل لهذا المجتهد الذي يجوز عليه الخطأ فلأن كل انسان بالغ عاقل عليه أن يطيع ويمتثل أوامر الله ونواهيه دفعاً للعقاب والضرر المعلوم ، لو خالف وعصى ، ولا طريق للجاهل إلى الطاعة والامتثال بالاحتياط أو التقليد ، والأول عسير أو متعذر ، فتعين الثاني . ولو أبحنا للجاهل أن يخالف العالم العادل لكان معنى هذا اننا نبيح له أن يخالف أحكام الله أو يؤديها مشوهة على غير وجهها، وبدون علم بوظائفها وأركانها وأوقاتها .

هذا هو شأن العالم أما شأن النبي فعلى العكس من ذلك ، لأنه ينقل الحكم عن جبريل عن الله ، لا عن أبي هريرة ، ولا يرجع إلى كتاب لأن الكتب تبحث عن سنته ، ولا إلى أستاذ ، لأن قوله الفصل والحجة لجميع الأساتذة .

وبكلمة ان حكم المجتهد ذاتي لا موضوعي ، أي ان للذات و«الأنا» تأثير فيه ، ولذا يقول : أنا رأيت وفهمت ان هذا حكم الله في حقي، وليس من شك ان « الأنا » تخطىء وتصيب ، بل ان جواز الخطأ عليها أثر من آثارها ، ولازم من لوازمها التي لا تنفك .

أما قول النبي فموضوعي صرف لا أثر فيه للذات سوى التعبير عما في الواقع وفي اللوح المحفوظ ، ولذا يقول : هذا هو حكم الله بالذات ، ولا يقول : هكذا رأيت وفهمت ، ولذا استحال في حقه العدول ، لأن العدول يتفرع عن الرأي ، ولا رأي ، بل وحي يوحى .. وبديهة ان حكاية الحكم عن الله بمعنى الوحي تستتبع عصمة الحاكي له وتلازمه ملازمة الظل للشاخص، بحيث إذا انتفت ذهبت معها النبوة لا محالة، بل ان العصمة هي النبوة ، والنبوة هي العصمة ، لأن عدم عصمة النبي معناه عدم عصمة الوحي ، وعليه فلا يكون القرآن قرآناً ، ولا جبريل أميناً، ولا محمد نبياً تعالى الله عما يقول الجاهلون .

ثم هل لمثلي ومثلك ممن يجوز عليه الخطأ والزلل أن يكون مؤهلاً للرسالة والتبليغ عن الله ؟ اذن أين الفرق بين التابع والمتبوع ؟ ولماذا وجب على الناس التصديق والقبول من النبي ؟ وما هو السر لاختياره رسولاً ، واتخاذه خليلاً وحبيباً وكليماً دون سواه من الخلق ، إذا لم يكن فوق الشبهات والهفوات ؟

وأعتقد ان الذين اعترفوا بالنبوة ، وأنكروا العصمة قد خلطوا بين الذات والموضوع ، بين حكاية النبي للوحي ، ورأي المجتهد ، وظنوا ان النبي يعبر عن رأيه وتفهمه، ولو فرقوا بينهما لقالوا بالعصمة لا محالة، والذي يدلنا على خلطهم هذا انهم عقدوا في كتب الأصول فصلاً خاصاً لاجتهاد النبي ، كما في المستصفى للغزالي وغيره ، فلقد جاء في الجزء الثاني من هذا الكتاب : « اختلفوا في النبي : هل يجوز له الاجتهاد فيما لا نص فيه » ؟

واختار الغزالي الجواز ، وقاس النبي بغيره من المجتهدين، ومما قال :

« كما دل الدليل على تحريم مخالفة الإمام الأعظم والحاكم[1] ، لأن صلاح الخلق في اتباع رأي الإمام والحاكم وكافة الأمة ، فكذلك النبي » أي ان النبي يحكم بالرأي والظن ، تماماً كما يحكم المجتهد .. وهو كما ترى مخالفة صريحة لقوله تعالى : « لا ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى علّمه شديد القوى » .

وتقول : هذا يدل على عصمة النبي فقط دون غيره ، مع ان الإمامية يقولون بعصمة الإمام أيضاً ، فما الدليل على ذلك ؟

الجواب :

ان الإمام الذي أوجب الشيعة له العصمة هو غير الإمام الذي تخيله وتصوره السنة ، فان مجرد العلم والايمان ، والكرامة والشجاعة ، والصبر والزهد والنزاهة .. كل هذه الصفات بمجردها لا تؤهل الانسان لمقام الإمامة ، كما لا تؤهله لمقام النبوة ، بل ان لذات الإمام الذي هو خليفة الرسول حقاً خصائص ومميزات لا يعلمها الا الله ، تماماً كما ان لذات النبوة خصائص ومميزات لا يعلمها إلا هو جل وعلا . وكما ان اختيار النبوة بيد الله سبحانه ، لأنه أعلم ، حيث يجعل رسالته كذلك اختيار الإمام لخلافة الرسول بيد الله لا بالتصويت والانتخاب .

فالإمام اذن ، عند الشيعة فيه جميع ما في النبي من صفات ومؤهلات وله ما للنبي على الناس من ولاية وسلطان ، ولا يفترق عنه في شيء إلا في نزول الوحي ، على ان الإمام قد أخذ عن الرسول ما نزل عليه من

---

١ جاء في كتاب الاحكام السلطانية للفراء ، وكتاب المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ، وغيرهما ان الحاكم الفاسق تجب اطاعته ، وتحرم مخالفته عند أكثر من واحد من أئمة السنة ، وعلمائهم ، واعتقد أن كل من أفتى بذلك فانما أفتى به خوفاً ، أو طمعاً ، لا اقتناعاً وايماناً ، ومهما يكن ، فقد اتفقت كلمة الشيعة على انه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ومن أجل هذا كان نصيبهم دائماً القتل والسجن والتشريد .

ربه ، والنتيجة الحتمية لذلك ان الإمام بهذا المعنى معصوم لا محالة تماماً كالنبي ، وان من نفى عنه العصمة فقد نفى عنه الإمامة، كما هي الحال بالقياس الى النبوة .

وبكلمة، أن من نفى العصمة عن الإمام فقد نفى عنه خلافة الرسول بمعناها الكامل الشامل من حيث يريد أو لا يريد .

وتقول : أجل ان العصمة تجب لهذا الإمام ، وان أمر اختياره بيد الله جل وعز بحكم الطبيعة ما دام على الوصف الذي ذكرت ، ولكن ما الدليل على ان الإمـــام الذي هو خليفة الرسول حقاً يجب أن يكون كذلك ؟

وحيث تحتاج الاجابة عن هذا السؤال الى التفصيل والتطويل الذي لا تتسع له هذه الصفحات فاني احيلك على كتاب الشافي للشريف المرتضى ، وتلخيصه للشيخ الطوسي[1] ودلائل الصدق للشيخ المظفر ، واذا وفق الله الى كتاب « الإمامة والعقل » أخذ بك في أوضح المسالك الى الجواب. وأرجو أن يوفق الله فالى اللقاء .

وتقول أيضاً : اذا وجبت العصمة لخليفـــة الرسول ؛ كما وجبت للرسول نفسه ، فينبغي أيضاً أن تجب للمجتهد الذي هو نائب عن الإمام مع أن الشيعة لا يلتزمون بذلك .

وجوابي عن هذا ان الفرق كبير جداً بين نيابة الإمـــام عن النبي وبين نيابة المجتهد عن الإمام ، فان الأولى تشمـــل كـــل ما للنبي من

---

١ أعيد طبع هـذا الكتاب في مجلدين كبيرين ، وأخرج اخراجـاً حديثاً ، وفيه الأدلة الشافيـة الكافية لاثبات الإمامة والعصمة ، والرد على كل مـا قيل حولهـا من النقد ، بخاصة ما جاء في كتاب المغني للقاضي عبد الجبار ، وقـدم له وعلق عليه السيد المعروف ببحر العلوم ، جزاه الله خيراً .

سلطان ، حتى الأولية بالناس من أنفسهم ، وليس للمجتهد هذه الولاية ولا ما يقرب منها عند الشيعة ، وانما تنحصر وظيفته بالقضاء والافتاء، ورعاية من لا ولي له ، ومن هنا كانت نيابته بالوكالة أشبه، ومع ذلك فقد تشدد الإمامية في شروط المجتهد ، ورووا عن الامام انه قال فيما قال : « أما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه ، حافظاً لدينه ، مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه » .

فصيانة النفس ، والمحافظة على الدين ، ومخالفة الهوى شرط أساسي لتنفيذ الحكم والعمل بالفتوى .. ولو ان رجلاً بلغ من العلم ما بلغ، ولم يكن على هذا الوصف لا ينفذ له قضاء ، ولا تسمع له فتوى ولا يؤتمن على فتيل لقاصر أو غائب .

وقد وجد في الشيعة ، ولله الحمد في كل عصر رجال يتمتعون بالخلال التي ذكرها الإمام ، ولكن — من سخرية الأقدار ، أو سخطها — ان يتفشى في هـذا العصر وباء لا أدري : متى نقضي عليه ، أو يقضي علينا ؟.. وهو تطفل أغيلمة بنزوهم على الكراسي والأعواد ، وجلوسهم للدرس والافتاء والقضاء ، حتى تخيلنا ، أو كـدنا نتخيل انهم القرود الذين رآهم النبي في منامه يصعدون منبره ، وينزلون ، أو انهم المعنيون بقوله (ص) : « هلاك أمتي على يدي أغيلمة سفهاء » وقد تجلى سفههم بتطاولهم على ما ليسوا له بأهل ، وظهر جهلهم للعيان في دسهم ونيلهم من كرامة العلماء بالتصريح تارة ، وبالتلويح واثارة الشكوك أخرى .. واذا استمرت هذه الفوضى ، ولم يقف كل منا عند حـده ، فستفقد النجف مكانتها والدين هيبته وعظمته لا سمح الله .

وبعد هذا الاستطراد ، أو نفثة الفؤاد أعود الى الموضوع ، لأثير هذه التساؤلات : هل الشيعة يقدسون الأئمة الأطهار الأبرار أكثر ممـا تقدس سادتها وقادتها هذه الأحزاب والمنظمات في الشرق والغرب؟. وهل

كتاب رأس المـــال – مثلاً – أقل شأناً عند أتباعه من القرآن عند المسلمين ، والانجيل عنـــد المسيحيين ؟. وإذا كان العلم يحتم ان نأخذ بالواقع المجرد عـــن الذات ، لأن النظرة الصحيحة هي التي تنظر الى الموضوع بدون أية اضافة زائدة – كما قالوا – فهل قائد الحزب هـو الواقع والموضوع ، بحيث يكون الأخذ بأقواله أخذاً بالواقع ، لا «بالأنا» على حد تعبيرهم ؟. وبالتـــالي ، هل للعصمة من معنى إلاّ الاستدلال بقول المعصوم ، وجعله دليلاً قاطعاً ، وحجة دامغة تمامـــاً كما تستدل الأحزاب والمنظمات اليوم وفي كل يوم بأقوال القادة والرؤساء ؟. اذن، لماذا يستنكرون العصمة ، وينعتون القائلين بها بالجهل والرجعيـة ، وفي الوقت نفسه أثبتوا هذه العصمة بالذات ، وأوجبوها بالفعل ، لا بالقول لمن وضع لهم الفكرة والعقيـــدة ، وتلقوها منه كما يتلقى المؤمنون من نبيهم ، والعبيد من سيدهم وفرضوا على الناس ، كل الناس قبولهـــا والعمل بها ، ونعتوا من أبى وامتنع بالجهل والتخريف يكمن في لفظ العصمة لا معناها ؟

وتجد الجواب عن هذه التساؤلات في فصل النقد على صعيد الرغبات.. ونختتم هذا الفصل بما يلي :

اتفق السنة والشيعة على فكرة العصمة ، وانهـــا ثابتة في الاسلام ، واختلفوا في التطبيق فقـــال السنة : هي ثابتة للجماعة ، لقول الرسول الأعظم (ص) : « لا تجتمع امتي على ضلالة » . وقال الشيعة : هذا الحديث ضعيف ، والعصمة ثبتت لأهل البيت (ع) بنص الآية ٣٣ من سورة الاحزاب : « يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » والمراد بالرجس الذنوب ، إذ لا شيء أقـذر وأوسخ منها ، ولا معنى للعصمة إلا البعد عنها والطهارة منها ، ومن أنكر عصمة أهل البيت فقد أنكر عـــلى الله ، ورد شهادته بتطهيرهم وذهاب الرجس

عنهم .. بل في اعتقادي ان من انكر عصمة سلمان الفارسي فقد أنكر على الرسول الأعظم (ص) ورد شهادته وقوله : « سلمان منـــا أهل البيت » .. ومن كان من أهـــل البيت مثل سلمان فهو في حكم آية التطهير .

النجف والفوضى

عند التصحيح :

لقد شطح بي القلم في الفصل السابق الى الحديث عن « أغيلمة » هذا العصر .. وكانت تلك الشطحة أو ذاك الاستطراد نفثة مصدور ، سرعان ما ذهبت مع الريح ، كغيرها من النفثات والحسرات ، وانصرفت أنا لشأني .

والآن ، وأنا أصحح للمطبعة ما جاء في هذه «الملزمة» من أخطاء عدت الى تلك الحسرة لأرى : هل ذهل منضد الحروف عن كلمة أو حرف.. وبصورة مفاجئة جالت في رأسي أفكار وأفكار عن أوضاع الشيوخ هنا وهناك ، وادعاءاتهم الطويلة العريضة ، وعن النجف ونظامها وطلابها وأعلامها ، وكانت تلك الأفكار الباعثَ الأول على كتابة هذا الفصل ، وإلحاقه بما طبع من فصول ، لصلة رئيس الدين والمذهب بالامام المعصوم نيابة أو وكالة .

حسنة الشيعة :

ان كان للشيعة — اليوم — حسنة تذكر فتقدَّر فهي استقلال منصب

الرئاسة الكبرى عن السياسة والسياسيين ، وتعيين الرئيس الأول ، واختياره للمنصب الأكبر بالعلم والعدل فقط لا غير ، لا بمرسوم من حاكم ، ولا بشفاعة ظالم ، ولا بانتخاب من منظمة معينة ، أو أفراد معدودين ، بل بنص طبيعي من سيرته وشخصيته ومؤهلاته ، وتاريخ حياته منذ الطفولة الى عهد الشيخوخة حتى إذا كانت طاهرة نقية قلنا جميعاً : وجدناه ، فهو هو دون سواه .. وقد امتاز الشيعة بذلك عن سائر الطوائف ، تماماً كما امتازوا بتفسير عصمة الانبياء من انها النزاهة عن الذنوب قبل النبوة وبعدها .

الفوضى :

ومن هنا كانت هذه الفوضى والتطفلات ، وهذا التكالب على لقب تقي واتقى ، وورع وأورع ، وزاهد وأزهد ، والعلامة الأوحد ، وحجة الله وآيته ، ومرجع عالي وأعلى ، ومجتهد كبير وأكبر ،الى آخر ما هو شائع ذائع ، بخاصة في ايران ، مصدر هذه الطنطنات ومسقط رأسها .. وقد كثر التسابق الى هذه الألقاب بعد ان اشتهرت الفتوى بوجوب الرجوع الى الأعلم في التقليد .

الفوضى افضل :

ومهما يكن فاني أفضّل هذه الفوضى والتطفلات على تدخل السياسة في أمور الدين والمذهب ، وأرى مخلصاً ان هذا التصدع والانحراف خير ألف مرة من تدخل السياسيين ، وان يكون تعيين الرئيس والمرجع بيد الحاكمين .. فانهم ان نظّموا فانما ينظمون الفساد ويجعلونه قانوناً ملزماً

ينفّذ بقوة الدولة ، وان اختاروا فلا يختارون الا من هو أشد خطراً على الدين ، وأكثر ضرراً من كل فوضى وكل تطفل ، وأي شيء أضر وأخطر من تصاغر نائب الإمام ، وتضاؤل الأمين على دين الله وشريعته أمام حاكم ظالم وفاسق مستهتر ، لا لشيء الا لأنه يتحكم في هذا المنصب وصاحبه ؟ لأجل هذا وغيره من المفاسد أفضّل التقاليد النجفية بعلاّتها على تدخل السياسة ، أفضّل هذه التقاليد أنا وكل مخلص لدينه وأمته يريد أن تتصاغر الدنيا وأبناؤها أمام دين الله وعلمائه وأمنائه ، أما من أراد العكس فما هو من الدين ولا الانسانية في شيء .

شيعة علي حقاً :

ان تاريخ الشيعة – أقصد شيعة علي قولاً وعملاً – يدل بصراحة ووضوح على انهم لم يسالموا ويتفاهموا في يوم من الأيام مع السياسة الظالمة الغاشمة ، ولا مع أي انسان لا يقيم للدين وزناً ولا للحق شأناً .. ذلك ان الدين عندهم فوق كل شيء ، وأعز من كل عزيز ، حتى من الأهل والعيال ، والنفوس والأموال ، أما الشاهد على هذه الحقيقة فأصحاب علي والحسين ، وزيد بن علي ، وشهداء فخ ، وغيرهم وغيرهم من العلماء والشعراء ممن ذكرنا في كتاب « الشيعة والحاكمون » .

لقد أصاب الشيعة من السجن والصلب ، والتقتيل والتشريد ما تعجز عن وصفه الألسن والأقلام ، لا لشيء الا لأنهم رفضوا الانصياع والانقياد إلا لمن اختاره الله ، وأراده رسول الله ، وارتضاه أولياء الله ، لا من أراده حاكم ومتزعم ليحلل لهواهما ويحرم .. ومن هنا كان لرؤساء الدين والمذاهب وكلاء الإمام حقاً هذه المكانة في النفوس ، وهذا التعظيم والتكريم .

الرئيس :

ان هذا الحب والاخلاص ، وهذا الخضوع والطاعة؛ان هذا الشعور الديني الخالص من كل شائبة الذي يحسه في قرارة نفسه كل شيعي في الشرق والغرب نحو من يمثل الدين حقاً ؛ ان هذا الشعور ما كان،ولن يكون ، لو ارتبط هذا المنصب الإلهي بالسياسة والساسة من قريب أو بعيد ، وانّى للسياسة واباطيلها ان يكون لهـا ما لدين الله من عظمة وجلال ، وهيبة وكمال ؟

وان شككت في شيء فلن أشك أبداً في ان هـذا المنصب ينطوي على كثير من أسرار النبوة والإمامة الحقة ، وانه الدعامة الأولى للدين والمذاهب ، والدعاية الكبرى لنشره واعزازه[1] بل لبقائه واستمراره .. ومن هنا كان له هذا التقديس والتعظيم في نفس الموافق والمخالف .

الدعاية :

وقد دلتنا التجارب ان في هذا المنصب سراً عميقاً ، لا نجد له أي تفسير الا في قاعدة اللطف العقلية ، والعناية الإلهية .. ذلك ان كثيراً ما تهيأ الاعلانات ، وتعبـأ الدعايات لشخص بعينه ، حتى نظن معها ان الرئاسة الدينية قد أتت تجرجر اليه اذيالها ، ولكن سرعان ما يتبخر كل

---

١ في سنة ٦٢ زرت بلاد العلويين في سورية ، وفي سهرة قضيتهـا في بيت أحد الوجهاء ببانياس قال لي علوي : نحن لا نعترف بأحـد من العلماء سواك ، حتى « فلان » لا نعترف به ، واسمى مرجعاً كبيراً .. لأنك الوحيد الذي يدافع ، ويكافح . فساءني مـا سمعت ، وقلت لـه : انك لا تعرف شيئاً من هـذا الباب ، وان مثلك مثل من رأى قائد جيش يحسن القتال ، ويدافع عن العاصمة ولوائها ، ويحرسها من أعدائها وذهل عن القاعدة الأولى ورئيس الدولة الذي لولاه لم يكن للكيان من عين ولا أثر .. ولولا من ذكرت ومنصبه السامي لم يكن للشيعة والتشيع من اسم ولا رسم ، فقال : أجل ، واعتذر .

شيء كأن لم يكن ، ويتولى الرئاسة رجـــل ما كان على البال ، ولا الخاطر ، أو على بال ناءٍ بعيد .. وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على ان الدعايات والاعلانات ، ان أجدت ، فانما تجدي في السلع والبضائع ، والمناصب الزائلة الزائفة . أما في الشؤون الدينية ، والمناصب الإلهية فانها لا تجدي نقيراً ، وسبحان من اصطفى لدينه الأطهار ، ولملة رسوله الأبرار .

أخطاؤنا :

قلت : اني أرجح الفوضى على تنظيم الساسة والسياسة ، وأفضل أنا وكل عاقل التقاليد النجفية بعلاتها على أي تدخل خارج عن الدين وأهله ، وليس معنى هذا اني سأسكت وأصمت عما نحن فيه من عيوب وأخطاء ، حرصاً على الهيئة الدينية ، والحوزة العلمية ، كما يقولون .. كلا ، ثم كلا .. كيف ، وأنا مؤمن بأن السبيل الى القضاء على الرذيلة والأخطاء هو ان نعرفها ، ونعترف بها ، ونشعر بوجوب الخلاص منهـــا ، أما السكوت والصمت ، اما التجاهل وغض الطرف عن العيوب فمعناه الامضاء لها ، والابقاء عليها ، ومعناه أيضاً تشجيع الاغيلمة ومن اليهم على تعدي الحدود ، والفضول والتطفل [1] .

ثم ما معنى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟ هل معناه اننـــا مسؤولون عن غيرنا ، ولسنا مسؤولين عن أنفسنا ؟ ثم لماذا نحرص كل الحرص على ان يستر بعضنا على بعض ، ونخاف هذا الخوف من النقد والصراحة ؟ وهل من سر سوى الجبن والهلع من الفضائح والقبائح ؟

ولو كنا على قليل من الوعي والشجاعة ، أو عـــلى شيء من حب

---

١ إن كان من شروط الأمر بالمعروف احتمال النفع فاني لأرجو أن ينتفع واحد من مئة بقراءة ما كتبت في فقرة الفوضى من هذا الفصل ، ان كان من عشاق الألقاب .

الخير لأنفسنا لرحّبنا بالنقد والناقد ، بل وبحثنا عنـــه في كل مكان ، فان لم نجده أوجدناه ، وخلقناه على شريطة أن يكون مخلصاً في أهدافه، خبيراً بالاسواء والادواء ، يجب ان نطلب هذا الناقد وندعوه للنقـــد ، تماماً كما يجب أن نبحث عن الطبيب الناصح الماهر ، وندعوه للعلاج .

وبالتالي ، فاني سأنتقد كل عيب ونقص أراه في قومي الذين أشهد الله وأنبياءه وأولياءه على المرارة التي أعانيها من أجلهم .. اني ادين لهم بالاخلاص ، وأتمنى لهم كل الخير ، وان يكونوا فوق الناس أجمعين، ولذلك أنتقد كل عيب فيهم ونقص ، وأعلنه على الملأ ، ولا أخشى لومة لائم من كبير أو حقـــير ، ما دمت مخلصاً لله ولهم ، واعياً ما أقول ،آملاً أن يتحسسوا ويشعروا بالمسؤولية تجاه خالقهم ونفسهم وأمتهم .

وأهلاً ومرحباً بمن يهدي اليّ عيوبي بقلب طاهر ، وعقل ساهر .

المهدي المنتظر

حدثتك في المقدمة عن رسالتين تتصلان بهذا الفصل ، وان صاحب احداهما اقتنع بفكرة المهدي المنتظر ، واهتدى بعد قراءته .. أما صاحب الثانية فقد رآه ممكناً بعد أن كان يراه ممتنعاً .. اذن ، لهذا الفصل أثره الصالح في هداية الحائر التائه عن سبيل الحق ، وهذا ما دعاني وشجعني أن أضعه بين يديك لتعطفه على الفصول السابقة ، فانه الجزء المتمم لها ، واثقاً كل الثقة انك ستنضم الى صاحبي الرسالتين ، ان كنت من التائهين عن الحق ، والطالبين له .

الدين والعقل :

أشاد الاسلام بالعقل وأحكامه ، ودعا الى تحرره من التقاليد والأوهام ، ونعى على العرب وغير العرب الذين لا يفقهون ولا يعقلون ، ويؤمنون بالسخافات والخرافات ، وقد أنزل الله في ذلك عشرات الآيات ، وتواترت به عن الرسول الأعظم الأحاديث والروايات ، وأفرد له علماء المسلمين أبواباً خاصة في كتب الحديث والكلام والأصول .

سؤال :

وتسأل – أيها القارىء – هل معنى اشادة الاسلام بالعقل انه يدرك صحة كل أصل من أصول الاسلام ، وكل حكم من أحكام الشريعة ، بحيث اذا حققنا ومحصنا أية قضية دينية في ضوء العقل لصدقها وآمن بها ايمانه بأن الاثنين أكثر من الواحد ؟

الجواب :

كلا، ولو أراد الاسلام هذا من تأييده للعقل لقضى على نفسه بنفسه، ولكان وجوده كعدمه ، ولوجب أن يؤخذ الدين من العلماء والفلاسفة لا من الأنبياء وكتب الوحي . ان للعقل دائرة ، وللدين أخرى ، وكل منهما يترك للآخر الحكم في دائرته واختصاصه ، على أن يقر كل منهما الآخر ، ولا يعارضه في شيء ، والانسان بحاجة الى الاثنين ، حيث لا تتم له السعادة والنجاح الا بهما معاً .

ان الغرض الأول الذي يهدف اليه الاسلام من الاشادة بالعقل هو ان يؤمن الانسان بما يستقل به من أحكام ، ولا يصدق شيئاً يكذبه العقل ويأباه . ان العقل لا يدرك كل شيء ، وانما يدرك شيئاً ، ولا يدرك شيئاً ، والذي يعلم كل شيء هو الله وحده . فوجود الله وعلمه وحكمته ، واعجاز القرآن الدال على صدق محمد في دعوته ، وما الى ذلك يدركه العقل مستقلاً ، ويقدم عليه البرهان القاطع . أما وجود الملائكة والجن ، والسير غداً على صراط أدق من الشعرة ، وأحدّ من السيف ، وشهادة الأيدي والأرجل على أصحابها ، وتطاير الكتب ، وسؤال منكر ونكير ، ونحو ذلك مما لا يبلغه الاحصاء ، وثبت بضرورة الدين – أما هذه فلا تفسر بالعلم ، وليس فيه للعقل حكم بالنفي أو الاثبات . ان الدين غير محصور ولا مقصور فيما يدركه العقل، بل يتعداه الى أمور غيبية يؤمن بوجودها كل من آمن بالله والرسول واليوم الآخر.

ولكن الدين في جميع أحكامه وتعاليمه لا يعلم الناس ما يراه العقل محالاً، أو مضراً . كيف ؟ ولولا العقل لاستحال الايمان بشيء من الأشياء .

وبالتالي ، فليس كل ما هو حق يجب ان يثبت بطريق العقل ، ولا كل ما لم يثبت بالعقل يكون باطلاً — مثلاً — ان مسألة المهدي المنتظر لا يمكن اثباتها بالآلة العقلية ، مباشرة وبلا واسطة،لا لأنها غير صحيحة وباطلة من الأساس ، بل لأنها ليست من شؤون العقل واختصاصه . ان عجز العقل عن ادراك قضية من القضايا مباشرة شيء ، وكونها حقاً أو باطلاً شيء آخر ، أجل ، ان مسألة المهدي يدركها العقل بالواسطة ، بحيث تنتهي السلسلة الى حكمه ، ذلك ان العقل يحكم بوجود الله، ويتفرع عن وجوده وجود النبوة ، وعن وجود النبوة تتفرع الإمامة والمهدي المنتظر الذي أخبر عنه الصادق الأمين بحكم العقل .

العادة والعقل :

فرقٌ بين ما هو ممتنع الوقوع في نفسه ، بحيث لا يمكن ان يقع بحال ، حتى على أيدي الأنبياء والأولياء ، كاجتماع النقيضين ، وجعل الواحد أكثر من اثنين ، وبين ما هو ممكن الوقوع في نفسه . ولكن العادة لم تجر بوقوعه كالأمثلة الآتية ، وما كان من النوع الأول يسمى بالمحال العقلي ، وما كان من النوع الثاني يسمى بالمحال العادي، وكثير من الناس يخلطون بين النوعين ، ويتعذر عليهم التمييز بينهما ، فيظنون ان كل ما هو محال عادة هو محال عقلاً .

واليك الأمثلة : لقد اعتدنا ان لا نرى عودة الأموات الى هذه الدنيا، وأن يولد الصبي ، ولا يكلم الناس ساعة ولادته ، وإذا جاع أحدنا لا تنزل عليه مائدة من السماء ، وإذا أصابه العمى والبرص لا يشفى بدون علاج وإذا سبّح الله وحمده لا تردد الجبال والطير معه التسبيح والتحميد،

وإذا أخذ الحديد بيده لا يلين له كالشمع . وإذا سمع منطق الطير لا يفهم منه شيئاً كما يخفى عليه حديث النمل ، ويعجز عن تسخير الجن في عمل المحاريب والتماثيل . ولم يشاهد انسانٌ مات منذ قرون ، ولا انقلاب العصا الى ثعبان ، ولا وقوف مياه البحر كالجبال ، ولا جلوس الانسان في النار دون أن يناله أي أذى . فكل هذه وما اليها لم تجر العادة بوقوعها ، ولم يألف الناس مشاهدتها ، لذا ظن من ظن انها مستحيلة في حكم العقل ، مع انها ممكنة عقلاً ، بعيدة عادة . بل وقعت بالفعل .

فلقد أخبر القرآن الكريم بصراحة لا تقبل التأويل ان السيد المسيح كلم الناس وهو في المهد ، وأحيا الموتى ، وابرأ الأكمه والأبرص ، وأنزل مائدة من السماء وانه ما زال حياً وسيبقى حياً الى يوم يبعثون ، وان النار كانت برداً وسلاماً على ابراهيم ، وان عصا موسى صارت ثعباناً ، وان الحديد لان لداود ، وسبح معه الطير والجبال ، وان سليمان استخدم الجان ، وعرف لغة الطيور والنمل . ان هذه الخوارق محال بحسب العادة جائزة في نظر العقل ، ولو كانت محالاً في نفسها لامتنع وقوعها للانبياء وغير الأنبياء . فكذلك بقاء المهدي حياً ألف سنة أو ألوف السنين واختفاؤه عن الأنظار — كما يقول الإمامية — بعيد عادة، جائز عقلاً ، واقع ديناً بشهادة الأحاديث الثابتة عن رسول الله (ص) ، فمن أنكر إمكان وجود المهدي محتجاً بأنه محال في نظر العقل يلزمه ان ينكر هذه الخوارق التي ذكرها القرآن ، وآمن بها كل مسلم ، ومن اعترف بها يلزمه الاعتراف بامكان وجود المهدي ، والتفكيك تحكم وعناد . اذ لا فرق في نظر العقل بين بقاء المهدي حياً ألوف السنين ، وهذه الخوارق من حيث الامكان وجواز الوقوع ، ما دام الجميع من سنخ واحد .

أحاديث المهدي :

ألف علماء الامامية كتباً خاصة في المهدي ، منهم محمد بن ابراهيم النعماني ، والصدوق ، والشيخ الطوسي ، والمجلسي الذي خصص له المجلد الثالث عشر من بحاره . وذكر هؤلاء العلماء وغيرهم كل ما يتصل بالمهدي من الأحاديث النبوية بخاصة ما جاء في كتب السنة ، وبصورة أخص الصحاح منها . وقد استقصاها السيد محسن الأمين في القسم الثالث من الجزء الرابع من « أعيان الشيعة » طبعة سنة ١٩٥٤ ، ورغم ثقتي بهؤلاء الأعلام ، ويقيني بصدقهم عما ينقلونه من غيرهم فاني تتبعت بنفسي ما تيسر لي مراجعته من كتب السنة خشية الاشتباه بالنقل ، أو في فهم الحديث وقبوله للتأويل ، ولأن القدامى وأكثر الجدد من علمائنا ينقلون عن الكتاب الذي يبلغ المجلدات دون ان يشيروا الى رقم الصفحة ، ولا تاريخ الطبع ، حتى ولا اسم المجلد ، وربما اكتفوا بالقول « جاء في كتب السنة أو قال السنة » .

وأكتفي هنا بنقل ما جاء في ثلاثة كتب من الصحاح الستة[1] لأن لفظ أحاديثها هو بالذات لفظ الأحاديث المروية في كتب الإمامية . قال ابن ماجة في سننه ج ٢ طبعة سنة ١٩٥٣ الحديث رقم ٤٠٨٢ :

« قال رسول الله : إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وان أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً شديداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود ، فيسألون الخير فلا يعطونه ، فيقاتلون فينتصرون ، فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعونها الى رجل من أهل بيتي فيملأها قسطاً كما ملئت جوراً » .

---

١ كتب الحديث الصحيحة عند السنة : البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة .

والحديث رقم ٥٠٨٣ :

« قال رسول الله : يكون في أمتي المهدي ، ان قصر فسبع والا فتسع ، تنعم فيه أمتي نعمة لم تنعم مثلها قط ، تأتي أكلها ولا تدخر منه شيئاً ، والمال يومئذ كدوس ، فيقوم الرجل يقول : يا مهـدي اعطني . فيقول : خذ » .

والحديث رقم ٤٠٨٥ : « المهدي منا أهل البيت » .

والحديث رقم ٤٠٨٦ : « المهدي من ولد فاطمة » .

والحديث رقم ٤٠٨٧ : « نحن بني عبد المطلب سادة أهل الجنة : أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي » .

وقال أبو داود السجستاني في سننه ج ٢ طبعة سنة ١٩٥٢ ص ٤٢٢ وما بعدها :

« قال رسول الله : لو لم يبق من الدنيـا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبـي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً » .

وفي حديث آخر : « المهدي مني ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، ويملك سبع سنين » .

وجاء في صحيح الترمذي ج ٩ طبعة سنة ١٩٣٤ ص ٧٤ :

« قال رسول الله : لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجـل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي » .

وفي ص ٧٥ : « قال رسول الله : يلي رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي ، ولو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يلي » .

وجاء في كتاب « كنوز الحقائق » للامام المناوي المطبوع مع كتاب

«الفتح المبين» سنة ١٣١٧ هـ ص ٣ : « ابشري يا فاطمة المهدي منك »[١].

هذا المهدي الذي أثبته الإمام المناوي وصحاح السنة ، وكثير من مؤلفاتهم هو بالذات المهدي المنتظر الذي قالت به الإمامية ، فاذا كان المهدي خرافة وأسطورة فالسبب الأول والأخير لهذه الأسطورة هو رسول الله . تعالى الله ورسوله علواً كبيراً . حتى لفظ « يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً » ، حتى هذه الجملة التي عابوها على الإمامية وسخروا منها ومنهم هي بحروفها للرسول الأعظم لا للامامية فان يك من ذنب فالنبي هو المسؤول ، حاشا الله والرسول .

ان الذين يسخرون من فكرة المهدي انما يسخرون من الاسلام ونبي الاسلام ، من حيث يشعرون أو لا يشعرون . وينطبق عليهم الحديث الذي نقله صاحب الأعيان في الجزء الرابع عن « فوائد السمطين » لمحمد ابن ابراهيم الحموني الشافعي عن النبي « من أنكر خروج المهدي فقد كفر بما أنزل على محمد » .

قال بعض المؤلفين : « اخترع الشيعة فكرة المهدي لكثرة ما لاقوه وعانوه من العسف والجور ، فسلّوا أنفسهم ومنوها بالمهدي الذي يملأ الأرض عدلاً ، وينصفهم من الظالمين والمجرمين » .

ولو كان هذا القائل على شيء من العلم بسنة الرسول لما قال هذا ، لقد تخيل أشياء لا أصل لها ولا أساس ، ثم أعلنها على انها عين الحق والواقع ، ولست أعرف أحداً أجهل واجرأ على الباطل ممن يكتب في موضوع ديني ويعطي أحكاماً قاطعة قبل أن يرجع الى كتاب الله وسنة الرسول ، وقبل أن يبحث وينقب عن أقوال العلماء وآرائهم . ان العلم

---

١ نقلنا في فصل « المهدوية وأحمد أمين » حديثاً في المهدي عن صحيح مسلم رداً عليه حيث زعم ان أحاديث المهدي لا وجود لها في هذا الصحيح ، كما نقلنا عن أحمد أمين بالذات في كتابه المهدي والمهدوية ان كلا من الإمام الشوكاني ، وأحمد الصديق ، وأبي الطيب الحسيني وضع كتاباً خاصاً لاثبات المهدي المنتظر ، فراجع .

معرفة الشيء عن دليله ، أما القول بالظن والتخرص كما فعل الذين أنكروا وجود المهدي فجهالة وضلالة .

وبالتالي فان الإمامية لولا هذه الأحاديث التي أوردها أصحاب الصحاح لكانوا في غنى عن القول بالمهدي ، وبكل ما يتصل به من قريب أو بعيد ، ولكن ما العمل ، وهم يتلون قوله تعالى « ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وبكلمة ، لقد أخبر النبي عن المهدي فوجب التصديق به ، تماماً كما وجب التصديق بمن سبق من الأنبياء لأن القرآن الكريم أخبر عنهم.

ورب قائل : ان الأحاديث النبوية التي نقلتها عن صحاح السنة انما دلت على خروج المهدي في آخر الزمان ، دون أن تتعرض من قريب أو بعيد الى وقت ولادته . اذن فمن الجائز انه يولد في القرن الذي يخرج فيه ، لا انه قد ولد بالفعل وقبل خروجه بقرون ، كما قال الإمامية .

الجواب :

ان القول بخروج المهدي وولادته ، وكل ما يتصل به لا مستند له إلا الأحاديث النبوية ، غاية الأمر ان خروجه في آخر الزمان ثبت بطريق السنة والامامية . أما ولادته فقد ثبتت بطريق الامامية فقط ، وليس من الضروري لأن يؤمن المسلم بشيء ان يثبت بطريق الفريقين ، وانما الواجب ان يؤمن بما يثبت عنده ، على شريطة ان لا يناهض ايمانه حكم العقل ويصادمه ، وقد بيّنا ان بقاء المهدي حياً تماماً كالخوارق التي حدثت لابراهيم وداود وسليمان وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ، لا تتنافى وشيئاً مع حكم العقل بالامكان ، لأنها قد حدثت بالفعل ، والدالّ على الوقوع دالّ على الامكان بالضرورة .

هذا ، وان جماعة من كبار علماء السنة قالوا بمقالة الامامية ، وآمنوا بأن المهدي قد ولد وانه ما زال حياً . وقد ذكر السيد الأمين أسماءهم

في الجزء الرابع من الأعيان ، ونقل الثناء على علمهم والثقة بدينهم عن كثير من المصادر المعتبرة عند السنة ، وهم :

١ – كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي في كتابه « مطالب السؤول في مناقب آل الرسول » .

٢ – محمد بن يوسف الكنجي الشافعي ، في كتابيه « البيان في أخبار صاحب الزمان » . و « كفاية الطالب في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » .

٣ – علي بن محمد الصباغ المالكي في كتابه « الفصول المهمة » .

٤ – أبو المظفر يوسف البغدادي الحنفي المعروف بسبط ابن الجوزي في كتابه « تذكرة الخواص » .

٥ – محيي الدين بن العربي الشهير في كتابه « الفتوحات المكية » .

٦ – عبد الرحمن بن أحمد الدشني « عقائد الأكابر » .

٧ – عطاء الله بن غياث الدين في كتابه « روضة الأحباب في سيرة النبي والآل والأصحاب » .

٨ – محمد بن محمد البخاري المعروف بخواجة ربارسا الحنفي في كتابه « فصل الخطاب » .

٩ – العارف عبد الرحمن في كتابه « مرآة الأسرار » .

١٠ – الشيخ حسن العراقي .

١١ – أحمد بن ابراهيم البلاذري في « الحديث المتسلسل » .

١٢ – عبدالله بن أحمد المعروف بابن الخشاب في كتابه « تواريخ مواليد الأئمة ووفياتهم » .

هذي هي مسألة المهدي المنتظر عرضناها على العقل فلم ينكرها، وعلى القرآن الكريم فوجدنا لها اشباهاً ونظائر ، وعلى سنة الرسول فكانت هي المصدر الأول ، وعلى علماء السنة فألفيناهم مجمعين عليها . ومنهم

هؤلاء الذين قالوا : انه ولد ، وانه حي الى ان يـأذن الله ، فأين مكان الغرابة والخرافة في قول الامامية ؟!

وكأني بقائل : مالك ولهذي الموضوعات التي أكل الدهر عليها وشرب أليس من الأجدر والأليق بك ، وبالصالح العام أن تعرض عن هـذه الى أوضاعنا وضياعنا، الى الحديث عن الحلول لما نعانيه من مشاكل وآلام.

قلت : أجل، والله . نحن في أشد الحاجة الى الأفعال لا الى الأقوال. الى السكوت عما مضى وكان ، والاهتمام بما هو كائن ويكون . ولكن ماذا نصنع ؟ ونحن نقرأ بين الحين والحين كتاباً أو مقالاً يكفر الملايين، ويطعنها في أقدس مقدساتها ، وينعتها بالجهل والسخف ، وانها لا تصلح للحياة ولا لشيء إلا للسخرية والاستهزاء ، وان التشيع الذي تنمذهب به لا يعد من المذاهب الاسلامية في شيء وانما هو دين ابتدعه أعداء الاسلام وخصوم الانسانية ؟!

ماذا نصنع ؟ هل يجب أن نسكت ونتغاضى عن هذه الهجمات والحملات؟ هل يحرم علينا الدفاع عن النفس وبيان الحقيقة ، وابطال التهم الكاذبة التي تزداد وتتفاقم بالتجاهل والاغضاء ؟! ثم هل يجتمع شمل المسلمين، وتتحد كلمتهم بهذه النزوات والضلالات أو باثبات ان ما قاله الإمامية في المهدي هو من الاسلام في الصميم . وهذي هي المهمة التي يضطلع بها هذا الكتاب .

المهدي المنتظر والعقل

تمهيد	١٨١
النقد على صعيد الرغبات	١٨٦
الإمام	١٩٢
حل المشكلات	١٩٧
الدولة العامة العادلة	٢٠٩
المهدوية وأحمد أمين	٢١٥
العصمة في أسلوب جديد	٢٢١
النجف والفوضى	٢٢٩
المهدي المنتظر	٢٣٥